محمد علي اليوسفي

بيروت
و نهر الخيانات

رواية

إهداء

عندما سكتَتْ نطقتْ للأبدْ
أيْ كما لم يُغَنِّ أحدْ
صُغْتُ منْ صمْتِها في دمي دوْرةً؛
طفْلةً، بعدُ تقْضَمُ لثْغتَها،
ثم لا تنتهي في زمان الجسَدْ

إلى
فيروز...والعائلة طبعًا!

م.ع.ي

أن تجد نفسك في كتاب...
أو نتفرّج والنّهر يجري

راوية عمران

هل حلمتَ بامرأة عارية؟ وإذا كانت تمثالاً؟ أليس من المعتاد أن يكون تمثالها عاريًا؟ لكن أين؟
مع مرور ليال، تتبادل النّضج مع الأيام، صارت لامرأة التمثال ملامح أليفة مثل وجه يفاجئك في الزّحام، أو لحظة تقول عنها إنكَ عشتها أو خبِرْتَ مثلها في وقت سابق. لكن متى؟ كيف؟ وأين؟ بل في أية طبقة من طبقات الدّماغ ؟

كانت أحلامه في العادة ملأى بالحركة؛ كأنْ يرى مياهًا صاخبة. وهو دائما يرى المياه، فيعيش الخفّة، بالمشي على سطحها ومخاطبة زبدها وفقاقيعها ثم...الطيران، أو كأنْ يهطل المطر على بيت قرميديّ فتنزل قطراته الغليظة عبر خصاص السعف الواقي فوق باب المدخل، كأنْ تكون قدماهُ في الطين وهو يرى زهرة لا يعرف اسمها، فتجيء عجوز وتبتسم، ثم امرأة فارعة الطول ـ يدَّعي أنها أنا، كما أتراءى له في أحلامه قبل أن أتحوّل إلى تمثال ـ فيُريني كيف يبقبق الماء في الطين حتى يغوص به الحذاء.

أنا أكتب الآن فتأتيني تفاصيل أحلامه. الحلم ينساب كتابةً أفضل من التعثر في روايته شفويا، حتّى وإن كان حلماً للآخرين.

أَوَّلْتُ له ـ أنا الفتاة الفارعة ـ رموزاً لم يكن ينتبه إليها في الحلم أو خارجه، عن البئر والماء والزهرة المجهولة: البئر امرأة، الطين امرأة، الماء امرأة، الزهرة المجهولة امرأة تأتي مستبقة اسمها...

غير أنني لم أتحدث عن التمثال.

لم أكن أتكلّم. هكذا تجري الأحداث في الحلم أحياناً. كنتُ أبتسم وأقول كل شيء. وأنا الآن أفكر في الموتى فأقول: إذا كانوا يتخاطبون فلا شك أنهم لا يتبادلون الكلام مثلنا بل يتواصلون كما في الحلم.

رآني أثيرية، لي شفافية ما أرتدي ونعومة ما لا أرتدي. ولا يتقدّم كثيراً في معرفتي حتى وإنْ سمّاني. كأنْ يسمّي الضوء. جسدي مضيء وروحي نائية، وربما العكس. لكنني، وكلّ مَنْ حَولي، نقول: حقاً إنه حبّ هذا الذي يجري، إنها بداية حكاية.

الحوار الجوّاني الذي يتحرك به الحالمون والشعوب الميتة، يذهب به بعيداً. فيحطّ على كتفي كما يحط على زاوية حاجبي. والحوار يذهب بي أيضاً. لكنه يعود إليَّ مغناجاً حتى لكأنني أقول: "لا". فيقول لي: "لكنكِ أنتِ... لكنكِ الأجمل..." فنعود صغيريْن، لأن الحب لا بد أن يكون صغيراً ومحتالاً.

مِنْ علاماته أنني كنت ألعب معه فأعطاني لعبته، وأعطاني قطعة الحلوى، حتى أسكُتَ. سوف يعطيني دراجتهَ وسيّارته إن لم أسكت.

من علاماته أيضاً تلاشي وجود الآخرين. لذلك لا يطيل التحديق في عينيّ كي لا يتيه - كما يدّعي- ولا يتابع رأياً أقوله جادّة.

من علاماته أخيراً أنه نسيَ ولم يعد كائناً أرضيّاً.

قال لي: "أنا أطير إذاً أنا أحبّ ". وفي ارتفاعه أحسَّ أنّه... وأنا لستُ. لكنه شاهد في الطبقات السّفلى زوبعةً تعبث بي. فشعر بذنب غامض(اختطف عصفوراً ولوى عنقه) كاد ينزلق أو يسقط لأنه مازال يطير. أتراه يحطّ أم يسقط ؟ يتوجّب عليّ النظر إليه حتّى يكفّ عن مراقبة طيرانه.

كان الغجر الذين أوقدوا النار تحتي قد تركوني. اكتمل نضجي ولم أعد طفلة. لذلك غادرتُ التّمثال.

أما هو فقد ظلّ يتساءل :"أين أنا؟ أأكون هنا أم هناك؟ بأية لغة من لغاتي أخاطب الآخرين؟"

أعتقد أن الآخرين سهّلوا المهمّة. لم يتكلم أحد. كانوا يومئون فقط. يتحركون ويتهامسون، يتغامزون ويبتسمون، لكنهم لا يتكلمون.

هكذا عقد صداقة، بل ألفة، مع زهرة لا يسمّيها، ثم مع امرأة، قبل أن تتحول في أحلامه إلى تمثال.

أما أنا فلم أكن لأتكلم بدوري، كنت أبتسم، وأوافق على كل شيء بابتسامتي. لأن الكلام في الحلم تواصل جواني.

جلست على الأرض مائلة. استنَدتُ بإحدى يديّ إلى جذع. قال لي:" إذا أردتُ جلْبَ اهتمام امرأة أضحكتُها، أشعَرْتُها أنها مكتملة بوجودي، حتى لا تتجمد مثل تمثال أو تنسحب مثل أرنب مذعورة."

لكنني كنت أبتسم مكتملة، ولا أحتاج إليه، بل أنتظر أن يحتاج هو إليَّ. وحتى عندما اندسَّ بين فرجة رُكْبَتَيَّ ظللتُ أبتسم. احتقن كلّ شيء ولم يكتمل إلى أن بلغنا حدّاً فاصلاً بين غيمتين؛ إحداهما ممطرة، والثانية لا. ثم غمرتنا ستائر المطر...

لم ينتبه إلى أناس غامضين، رجال ونساء، صخبهم أشبه ما يكون بجلبة الغجر. أَوْقَدوا النّار تحتي ثم خلّفوا وراءهم زجاجات فارغةً لخمور رديئة وأخرى مهربة، علبَ سجائر، أوانيَ مكسورة، وبقايا رماد...

أما أنا فقد خرجتُ من صقيعي، وتحركتْ ملامحي، تحت ألسنة اللهب التي خَمدت الآن، مع أنني لم أكن في البداية سوى تمثال...تمثال امرأة...تمثال امرأة عارية.

كان يطلّ من كوّة، زاعماً أنها شبّاك، في تلك الغرفة البائسة، على السطح. لو أنه لم يُدمن النظر من تلك الكوة، مدجَّجاً بمراياه ومناظيره فيما بعد، لما جاؤوا، بدورهم، مدججين بأسلحتهم الخفيفة. لا أعتقد أنهم جاؤوا لهذا السبب. ثمة خطأ ما...وشاية ما.

حتى في ما يخص المرايا، كان حذراً في رصد اتجاه الشمس كي يعكس الأشعة ويستدرجها قليلا قليلاً، إلى أن تبلغ شرفتي، في التماعة قافزة، مرتبكة، مواربة، تتخلّل المباني والسطوح وأعالي الزواريب. فتصفعني الأشعة وتحضرني الشمس إليه، عندما أرفع رأسي عن سياج الشرفة وأحيّيه من بعيد .

آنذاك يترك المرآة ويتناول المنظار المقرّب. فأحدّثه تماماً كما تفعل امرأة خرساء بينما هو يقرأ حركات شفتيَّ ويكاد يمد يديه.

لكنهم هذه المرة جاؤوا.

قرقعوا السطح بجزماتهم العسكرية. سحبوا أقسام البنادق الرشاشة. توزعوا على الزوايا. وتولّى أحدهم مهمّة الخبط على الباب.

ما من عزلة تكتمل في هذا المكان. تمرّ سيارة، أو تنطلق رصاصة غامضة(قد يكون صديقُ قتل صديقَهُ) وبعد قليل تخترق طائرة معادية جدار الصّوت.

هكذا توغّل في الإقامة، لكنْ ببطء، مع أنه لا يدّعي الإقامة خارج ذاته. بسرعة جاؤوا. بضجيجهم وأسلحتهم، بتهذيبهم المفتوح على شتّى الاحتمالات، بلعناتهم التي صنعت له اتصالاً بهم وتواصلاً معهم. مع أنه كان يستحضرني في عزلته الكبرى، مع أنه يفاجأ دوماً بأنني أسبقه إلى أي موعد؛ وإذْ يجدني جالسة في انتظاره، يهتف بي:

ـ راوية!

أجيبه ضاحكة:

ـ لكننا نرى بعضنا بانتظام، فلماذا تجلبني بالمرآة أيضا؟

فيهمس في أذني:

ـ أقرأُ رغبتي فيك كما أريدها عبر مرآتي.

وظلّ مهووساً بشَعْرٍ في فستاني الأحمر الطويل ينفلق حتى وركي اليسرى.

لعلَّه يستجمعني الآن من تعب وحب، من حضور وغياب، ببضع حواس تخونه كما هو شأنها في الغياب. فلا تنقذه إلا تلك المنطقة المعتمة في الكيان حيث تختلط خبايا الحواس وتنصهر في ماضينا، ساكنةً موضعاً رخواً فينا، اسمه الذكرى.

يرفع غلالة النعاس، يمزّق خيوطاً نسجتْها عناكب العزلة وينادي:

-راوية!

لكنهم جاؤوا...

وليتهم أوصلونا، بقرقعة السلاح، إلى ما هو أدنى من كوابيسنا عندما كان أكثرنا شجاعة يحلم بما هو أبعد من سبّابة تستسهل موقع الزناد.

لكنهم لم يطلقوا النّار...
كان يُوقِّتُ حضوري بحركة الظل ودرجات الضوء، حتى يميل ظلّي إلى حافة النعاس فأكاد أنحني لألقي برأسي على زنده.عندئذ يستيقظ مرهقاً بالانعكاسات " شمسٌ علينا، وظلالهم على ظلّي، وظلّي على ظلال منْ ؟ " أعايش كلامه الملغّز، ولا يهمني فَهْمُه. فَلْيُرسل ظلّه كما يشاء، في الصمت والعزلة، ليعود إليه بظلّ ظلال. يغيب، يخسر مكاناً متذكراً غيره؛ فيتحرك في اللامكان. ومع ذلك ينتظر من يأتيه من هذا الغياب أو ذاك، يدق بابه، ويقول له: إليك بالمفتاح!
لم أكن بريئةً حتّى يعلّمني الشرّ. كلّ ما هنالك أنه أخرجني إلى احتمالاتي.
-لماذا لا تكفُّ عن محاصرتي بالشمس ؟
-أسطو عليك بما لا أملك.
-وأنتَ، من أنَتَ، هل تكون شمسي ؟
-بل أنت.
-فلِمَ تحرِّكني بالشمس بين يديكَ ؟
-هِيَ ملكُ الجميع...وأنت...
-وأنتَ ؟ هل تكونُ القمرَ ؟

لستُ شمساً. هيأني رسولَتَه إلى الخراب، عبر مرايا وأقنعة، عبر كثافة الرغبة وغفوتها في قاع الميول الدنيئة. أكسبني مبرّرات للخوض في أوحاله بعيداً عن أيّ رقيب، وأيّ انتماء.
فماذا أفعل الآن وهنَاك من يحطّ على كتفي؟ "يا رزيل ! " أقول بعد أن ينهي رذالاته السّبع.
لن أتكلّم الآن.
أتراهم يخافون أيضاً، من حبّ رذيل، نائم على الورق؟
لن أتكلم الآن. ولن أعكس صوراً؛ بل أفسح له المجال كي يتكلّم في مرآتي...

أنـا

في البدء حمنا حولها. رَاوَدْناها كلنا. ولَّدتْ فينا مَلَكَة الكلام، مستقبلةً كلّ ألوان الغزل. أما أنا فقد جئت متأخراً. ومع ذلك توصّلتُ في النهاية إلى نسج الكلام وإسكانه في جسدها. ولمّا تمّ لي ذلك، ابتسمتْ لي ذات يوم وقالت بين المزاح والسخرية: " ألا تجيد العكس؟ "
حقاً، لم أنتبه إلا فيما بعد ـ أكان لا بدّ من مرور الزمن؟ ـ إلى أنّ جسدها هو الذي يأتي بالكلام وكان لا بد من لغة خاصة، وكلام يبثه جسدها فأقوله أنا.
وماذا بعد الكلام الآن؟
إذا كان جسدها قد أتى بكل ذلك الكلام ـ وهذا الكلام أيضاً ـ أيكون العكس؟ هل يأتي الكلام بجسدها؟
أوّل لقاء بيننا، كان في قبو واسع، أُعدَّ ملجأً للغارات الجوية المفاجئة. كنتُ في مواجهة الخوف الذي نعتاده، غير أنه يهيئ لنا لغة من نوع خاص، تنطق بها مفاصل الجسد، حرّةً، متحرّرة، من كلّ انضباط أو توازن. كان الخوف من الموت يبعث رعشة محاذية للأنثى. كأنما الأنثى فينا هي التي تستعيد تلقائيتها الخائفة وتخاطب أيّ أنثى من دون استئذان للعبور...

لكن الذي ميَّز راوية هو تلك الشجاعة المربكة، متحركة بين عيون الأطفال وشكاوى النساء، في ثياب خفيفة قفزت بها من النوم.

عرفتُ منها، فيما بعد، أنها مرّت بتجربة حزبية قاسية وتعاملت مع الأسلحة الفردية. ولم توضّح أكثر. قالت لي أنها كانت تشعر بالقوة عندما تحتضن الرشاش، غير أن أي ظهور مفاجئ لصرصور ظلّ هو المفاجأة الأكبر؛ مفاجأة الخوف الأبدي للأنثى. ولما حاولتُ الاقتراب منها لم أجد سوى غرفة على سطح إحدى البنايات، في منطقة تعتبر القلب المتفجّر، لأنها تضمّ الشعب، والشعب فيها يلتفّ على طليعته خائفاً منها وخائفاً عليها.

كانت راوية تبدو لي في منتهى الواقعية حيناً، فترفض أية علاقة زواج، لأسباب تُعدّدها فتبدو مقنعة. ثم يعاودها ماضيها الثوري فتكاد تعود إلى الاقتناع بضرورة قلب القيم. غير أن تلك الروح تجتاحها فتأخذها ـ وتأخذني ـ إلى أمكنة ظليلة وأزمنة حالمة. ولا تلبث أن تهدأ فأجدني أمام افتراضاتها وأعذارها وحكاياتها، تماماً كما لو كنت شهريارها الوحيد، بينما هي تتكلم وتتكلم...فتخرج من الواقع إلى الحلم، ومن لمسة البوح إلى الإيحاء، مروراً بالحكايات المرمَّزة والأمثال، حتى تعود، وتعيدني، إلى الواقع مرّة أخرى؛ إلى المعقول؛ والمعقول هو صعوبة أن نلتقي.

ولم يكن ما تقوله، أو تعترف به، مطابقاً دائماً لما يُقال عنها في الوسط الذي اقتربتُ منه بهذا القدر أو ذاك. ذات يوم وأنا أدقّ جرس بابها سدًى، اقتربتْ مني جارتها العجوز لتمطرني بأسئلتها ثم تهمس في أذني، مدَّعية أن راوية كانت لها علاقة بفدائي ياباني رأته يمصّ أصابعها!

وهي لم تترك تنظيمنا، قال لي أحد رفاقها القدامى، بل طُردت منه، لأنها اتُّهمت بقتل رفيق حاول اغتصابها، وكان مناضلا أمميًّا، جاء من بوليفيا ليلتحق بصفوف الثورة منذ الحرب الأهلية...وأيضاً: لها علاقة مشبوهة بالمنطقة الأخرى...وبالخارج أيضاً!

آنذاك، كان مثل هذا الكلام سهلاً، بينما الجواسيس الحقيقيون يرتعون. ولا أخفي أنني ـ كجاسوس محتمل وكما يمكن للآخرين أن يفكروا...وقد فكّروا ـ انجذبتُ إلى شخصيتها الغنية، المتناقضة. كنتُ ولا أزال أنجذب إلى المرأة الغامضة التي تسكن كثافتها وتترك لظلالها مهمة الحديث عنها...

هكذا وجدْتُني صحبة نساء يسكنَّ امرأة واحدة اسمها راوية. فواكَبْتُهنَّ وسايرتُ سلوكهنّ متعثراً في منعطفات تبدُّلاتهنّ المفاجِئَة وفق كل مرحلة من مراحل التحوّل، وصولاً إلى الانكفاء، والاكتفاء برذاذ الحكمة ورطوبة الأسف.

كنت أحاول الاقتراب من راوية الأولى، فتدفع بي إلى الثانية. أعايش وهم الثانية فتهبط بي، أو تعلو، إلى الثالثة...تماماً كما في ذلك اليوم عندما زرتها في بيتها المستقلّ وفوجئت بكثرة المرايا. "تلك المرايا تعددني" قالت مبتسمة. وكان أن رأيتُني كثيرين يسعون وراء كثيرات. حتى إذا جلستْ، انفتح ذلك الشق عن نصل فخذها فعدَّدَتْه المرايا.

ولم يكن ذلك سرّها الوحيد.

كانت تعلّق في جيدها سلسالاً تتدلى منه علبة صغيرة، مغلقة دائماً. "أتعرف ماذا يوجد فيها؟ " تسألني في كلّ مرّة. فأكتفي بهز رأسي، أو بأظافرها وهي تردع يدي المتسلّلة إلى صدرها. لن تتركني أفعل. مصحف؟ إنجيل؟ حجاب ؟ هواء؟ وهي تبتسم ولا تفتح. ماذا عساها كانت تخفي في تلك العلبة الصغيرة ؟ "إذا اكتشفتَ السرَّ تكون قد امتلكته إلى الأبد! " تقول لي.

لم يكن من السهل كسر قواعد اللعبة بيننا كما تواضعنا عليها؛ هي، بوثوقها فيَّ، وأنا، بادِّعائي مراقبة النضج حتى تستوي الثمرة في رحابة فصلها. ومع ذلك، سوف تتهمني بالبطء فيما بعد، أنا الذي اكتفيت بالشقّ المنفرج عن فخذها، وبتأرجح الصندوق الفضيّ الصغير في منزلقات صدرها.

كان كل شيء بيننا يتم عبر الكلام، وعبر الكلام وحده، بما في ذلك ما تدعوه "الرذالات السبع". صار الكلام يأتي من جسدها إليَّ...فأتخلص من الكلام القديم الذي حفظته. قالت لي"خلاص!" بتلك الابتسامة الأرجوانية التي تقودني إلى حافة النعاس "الآن، أطمئنُّ عليك!"

كنّا في المطعم البحري الصغير قرب المنارة، عندما فاجأ خلوتنا واحدٌ منا، واحد من أقمارها، أو وكلاء لغتها، كما قد تسمينا. لم أكن أعرفه. ابتسم بخبث ثم حيّانا. وقبل أن ينسحب توجّه إليها بالكلام غامزاً باتجاهي:

-راوية !

-أهلاً !

-للغرباء معليش ؟

لعَنَتْه مازحةً ثم التفتتْ نحوي:

-شفت كيف يفكرون ؟

أومأتُ برأسي موافقاً، وفي داخلي نشوة، لأنني أفكر مثلهم.

صدّقت في تلك المّرة، أنّ لي حظوة يميزها الآخرون. وفي مرة أخرى، استخدمتُ لغتها التي يأتي بها جسدها فتصير ملكي: أنْ أقول كل أفكاري، بنبيلها(هذا خطأ، علّمتني فيما بعد أنْ لا وجود لأفكار نبيلة؛ وحدها الأحاسيس هي التي تكون كذلك، حتى الدنيء منها. ولم أدرك وقتها بأيّ دمار في الروح يأتي مثل هذا الكلام)...أنْ أقول كلّ أفكاري اللئيمة ومشاعري النبيلة بصوت عال، لكنْ مع توافر شرطين: ترك الكلام يتسلل بين حَدَّيْ الجدّ والهزل. فإذا أخطأ، مبالغاً في الاحتكاك بهذا الحدّ، أسرع إلى الالتصاق، معتذراً، بالحدّ الآخر:

-كأنني سأبدأ...

-ابدأْ

-كأنْ أحبَّك مثلاً.

-وأنا أيضاً.

-أتحبينني حقاً ؟

-أعزّك !

كنا نتناول وجبة بيتزا مع النبيذ، وهي أكلتها المفضلة، عندما سقطتُ، أو كدتُ، في صحفة حساء غير موجود:

-كلّ هذا الجمال، وتقاومين الحب!

-ومَنْ قال لك ذلك؟

هكذا تتقن وقف الحوار، وتجعلك تتراجع إلى محاولة الفهم والتأويل وحدك، وإلا قضَيْت على الحدّ الفاصل، وتأرجحت منه.أتراها لا تحب إلا في جعلنا نحبها...وبالكلام ؟ كلاّ :

-لو كنتَ تربطني الآن...

-أربطك ؟

-لو كنتَ زوجي...

-لو ...

-أكنتَ تسمح لي بمثل هذه الجلسة ؟

-تقصدين...

-بين صديق أعزّه ونبيذ أفضله...

-وهذه "البينْ" ؟

-غرتَ ؟

وكيلُها في الخارج أيضاً.
تلتصق بي. تتمسّك بذراعي عندما يظهر المسلَّحون. وهي لا تخافهم لأنهم مسلحون قد يهددونها بصفتهم تلك، بل لأنهم لا يستطيعون مقاومة جمالها وطولها الفارع، ولا يعرفون الحد الفاصل بين طول اللسان وتطاول اليد. ولأنني لست مسلَّحاً مثلهم:
-تعال نمرّ على الرصيف الآخر.
-لماذا ؟
-العتَّالون!
تخاف الحمّالين أيضاً. هم ليسوا مسلّحين، لكنهم يتحركون في حدّ واحد: الكلام العاري. والكلام العاري ذهب بالكثير من وكلائها وأقمارها. غير أنها تجيد التكتم على أسرار الآخرين؛ أسرارها، فيشعر كلّ منّا أنه المبتدأ والمنتهى. يغفو قليلا أو يتبلّد فتلقي إليه بالمفتاح، بالطُّعم: لماذا لم تتغزّل بي؟
عجزْنا أمام شروطها. اكتفينا بضحكات وكلمات وملامسات. ولم تكفّ هي عن طلباتها: أنْ نحميها من العتالين "أما أولئك فيأكلونني أكلاً!"
لقد لعبتْ دوراً لم نكن نخاله من أدوارها: أن تكون أمّنا أيضاً، وتتدرج بنا في مدارج النطق والكلام.
واليوم مات كثيرون منّا. وهاجر آخرون. وظلّ من بين "أعزَّائها" قليلون.
أنا القادم من كلماتها، قبلها أحببت نساء لم يبادلْنني حبّا بحبّ. وأحبَّتْني نساء طاوعْتُهنّ إلى هذا الحدّ أو ذاك، من أجل اقتناص اللذة أينما كانت، وبالمقدار الذي عليه تكون.
كانت الحدود واضحة: إما مقايضة لذّة بلذّة ـ وهذه حالات نادرة ـ أو التسلل من المراوغة إلى الخطط الواضحة، المؤدِّية إلى الزواج والإنجاب. إننا نتحرك دائماً إلى لحظة لا نتوقعها. نتحرك وبالقرب منا: المرأة الفرس، والمرأة البضة التي يقول عنها صديقي عزوز المرداسي، في مأدبة جوع وعيناه على الشرفة المقابلة: "أينما رميت بيدك وجدتَ اللحم"، والمرأة النحيلة المتكسرة بين يديك، وكأنك الريح تلفّ حول غصن، والطويلة الفارعة التي يقول عنها عزوز المرداسي " تجدها هنا و...هناااك!"، والمرأة المهرة بكفل في حجم الكف، والمرأة التي تظل غزالةً حتى بعد تدْجينها كما دُجّنت الفرس، فلا تنظر إليك بعينين مسالمتين، ثم المرأة الصّورة: مُربِّيتُنا الأولى لدخول حقول الندم؛ تلك التي تطبع نزواتنا القادمة: "امرأة اللذة من جانب واحد" كما يقول صديقي عزوز المرداسي دائماً. فأين أضع راوية يا عزوز؟ تلك مسألة زمن، يقول لي، والزمن يفلت من بين يديك. وسوف تدرك، هي أيضاً، أنه بدأ يفلت من بين يديها، لكن بعد أن تنتهي الألعاب...
والآن؛ كم أجدني في كلماته! أنا القادم من كلماتها!

عَزّوز المَرْداسي

" يا عزوز انتبه! قد تغرق!"
هذا هو الزمن.
عندما كنا صغاراً، كان صديقنا النهر. وكلّ مقطع فيه، كلّ شبر، يسكنه عالم: طحالب، يرقات، أسماك، برْوَاق، خطى للعابرين، روث، نمل...لكننا لم نتساءل من أين يأتي النهر حتى أَلِفْناه.
-من أين ينبع النهر يا عزوز ؟ سألني صديقي جابر.
-من كهف بعيد، في جبال بعيدة، أجبته، مشيراً إلى جبال لا أراها.
-لعلّه يأتي من البحر ؟

-البحر مالح...
-كيف عرفت؟
-ذقْتُ ماء النّهر، قبل المصبّ وبعده، لمّا ماتت خالتي وزرْنَاها. لكنني لا أعرف من أين ينبع.
-لماذا لا نغامر، مرّة حتى نبلغ المنبع؟
-أول ما ينبغي عمله هو الاستيقاظ باكراً ثم السير بعكس تدفق الماء.
وفي منتصف الطريق ـ أكان المنتصف حقّاً؟ ـ بكى صاحبي. وبدأ يفكر في العودة، وقد تملكه اليأس من بلوغ مكان اسمه النبع. غير أنني عرضت عليه الإغراء الأكثر فتنة:
-للنهر أقفال، يكفي أن نصل إلى النّبع، ونغلق تلك الأقفال، حتى نكون قد سيطرنا على النهر، وأوقفنا تدفق الماء إلى الأبد.
لمعت عيناه، عندئذ، بغير الخوف، فيما ظل الخوف يسكن نقطة غامضة فينا، وفتنة الأقفال تدفعنا...
ومع ذلك عدنا من منتصف الطريق ـ أكان المنتصف حقّاً ؟ ـ وصرنا نمشي باتجاه تدفّق الماء نتفرّج على النهر، عائدين، والنهر يجري...
أعود من كل رحلة وأتذكر أن ذلك النهر مازال يجري. حتى وإن شحت مياهه. وما يفزعني، في كل عودة، أن أعود إلى أسمائي. إنهم لا يلبثون أن يذكّروني بها. لكنني أفضّل أن أختار من ماضيَّ ومن طفولتي، ما أريد. أنا الإنسان المتحول مثل مياه النهر، والقادم من طفولة البرد والضباع والذئاب، هاجرت إلى أوروبا. وتمكنت من امتصاص الصدمة، بل صدمات أن يصير المكان مكانين والزمان زمانين. وحسب المواسم، وسوق العمل، تنقلت بين مهن عديدة، فعملت في البناء والزراعة والكناسة، وتمكنت من الانتساب إلى جامعة السربون لبضعة أشهر فقط. وبعد ذلك غادرت فرنسا إلى ألمانيا، قبل أن أبيع الجرائد في النمسا، وأصطاد فرص التسكع والعمل في بلدان أخرى، مقاوماً الركود هنا، بالسفر إلى هناك، حتى بلغ بي الوهم أن ذهبت للبحث عن فرص أفضل في تركيا والعراق وإيران وسوريا، وقد انغلقت أمام محاولاتي فرص الدخول الحرّ إلى أسواق الخليج العربي.
لكنْ، لماذا كان عليّ أن أرتبط ؟
عدت إلى تونس وتزوجت. إلا أنني لم أصطحب زوجتي عندما قرّرتُ سفراً آخر، تلاه سفر...
عدتُ، فأشهدتني "أحلام" على متعة الظلمات. واكتفيت بالعمل حارساً حتى واتَتْني فرصة السفر إلى ألمانيا من جديد؛ أنا الذي خسرت كل شيء.
لم يكن السبب القادح لسفري الأخير ما فعلته أحلام وحدها، بل رؤيتي لتلك الجمجمة!
فوجئت بالأطفال وقد تطوّروا كثيراً، لكن باتجاه الأسوأ. أيعود ذلك إلى الأنماط الجديدة من التربية، أم إلى انفتاح الفضاء الخارجي؟ ربما إلى تضافر ذلك كله مع جيل جديد من الآباء والأمهات الذين يربون أبناءهم وفق وصفات الكتب، فيخرج أطفالهم مزودين بتربيةٍ، أقلّ ما يقال فيها إنها ملأى بالأخطاء المطبعية!
لقد جنّنوني فعلاً.
ظلوا أياماً يُطلّون عليّ بكيس أسود، جاهز؛ يرصدون انتباهي أو مروري، ويُخرجون من ذلك الكيس جمجمة إنسان ميت. يرتّبون صفوفهم بسرعة البرق، ويوزّعون أدوار الدفاع وأدوار الهجوم، ويبدأون بالزعيق، وبركل الجمجمة المقرقعة التي تشبهنا عندما نتعرى من اللحم. صحت في البداية فزاد صخبهم وفرحهم. ركضت وراءهم، أريد جمجمتي، فتأججت نشوتهم. صاروا يهربون ثم يطلّون عليّ بتلك الجمجمة التي تبنّيتُها لأنها أنا في زمن آخر.
فهل يعني ذلك أنني كبرت؟

أذكر عندما كنت صغيراً أنني فعلت أشياء من هذا القبيل، كلاّ، لا أعتقد أنها كانت من هذا القبيل. كنت أحكي مع الجماجم فقط ، ولا أركلها. مرة واحدة، حاولت سدّ ثقوبها بالجبس فانكشف أمري. لم أكن لأركلها مثل كرة قدم. ربمّا لأن الكرة لم تكن قد أوصلتنا إلى العالم آنذاك، أما اليوم فنحن غاطسون فيه.

لم تتمكن أحلام من مسايرتي في ترحالي عبر العالم. وبعد محاولات قليلة، رافقتني أثناءها إلى بعض البلدان، قرّرت العودة النهائية إلى البلاد، لتنتظرني فيها، بينما أتابع بحثي عن الرزق وإرسال الأموال إليها، كي تبني البيت وتغزل الصوف.

والآن، وقد استولْت أحلام على البيت وهربت بالصوف، وبكلّ أوراق العقود والملكية، ماذا عساي أقول عنها وعني؟

علاقة الرجال بزوجاتهم أنواع.

فثمة الجبّار، بشاربينْ أو من دونهما، تفعل زوجته ما تريد في غيابه، لكنها ترتعش في حضوره مثل ريشة. وهذا الصنف بات نادراً.

وثمة الذي تبرز قوّتُه ، في الجانب الخارجي من العلاقة الزوجية، بينما تخفي الجدران طاعة وامتثالاً في سلوكه.

وثمة الذي استسلم نهائيا لزوجته، في السر وفي العلن، بعد فقدان الجدوى من المعارك المتواصلة وعدم قدرته على متابعتها.

وثمة الحالة التي تؤدي رأساً إلى الطلاق، عندما يلتقي سيّد واثق بسيدة واثقة.

أما حالتي فهي مختلفة تماماً، لأنها تجمع بين تلك الحالات البشرية جميعها.

وعلى سبيل المثال، كنتُ أشتبك مع أحلام، وفي الغد تزال آثار المعركة بهدوء وصمت. أخرج من دون أن أكلمها. أتركها تنظف البيت صافقة باباً من هنا، وشبّاكاً من هناك، وصحناً في المطبخ. وفي غيابي، تأكل ما تجده في البيت، لأنها من ذلك الصنف الذي يهجم على الأكل في حالات الغضب، ولا تطبخ شيئاً، حتى لا آكل منه. فأنا لم أذهب إلى السوق ولم أوصها بشيء.

أبتعد عنها وأفكر؛ لو أنني راعيت ظرفها قليلاً...لو راعت أحلام حالتي النفسية...لو افترقنا قبل أعوام عندما خافت من زلزال صقلّية ورفضت البقاء معي. أسير في الشوارع شاعراً بحالة تحرر وهميّة وانتصاب خفيف...وأعود أقربَ إلى المهادنة. وتبدأ أحلام بدعوتي إلى الأكل مما هو موجود.

أنا أؤمن أن كل امرأة ـ أقصد كل زوجة ـ هي الماسكة بالسلطة. ولكنْ، على طريقة المثل الشامي البليغ " إذا كان الرجل رأس المرأة فالمرأة عنق الرجل" وعندنا أغنية تقول: "إذا بابك بلا مفتاح، النساء (هنّ) المفتاح" أي أنك القفل! والحمد لله!

ولا تعنيني حالة المرأة التي تحكم زوجها نهائياً وتسوقه كما تشاء؛ سواء أكان ذلك بعد معارك واختلال في موازين القوى، أم كان متأتياً من تفاوت في الممتلكات والمَلَكَات بينهما. أتحدث عمّن يدّعي الفحولة النسبية مثلي. وربما كان ضعفي يكمن أساساً في هذا الاعتراف بالنسبية، غير أن الضعف نسبيّ بدوره.

تنتهي كل معركة بيننا وتبقى هي الأقوى، لأنها كالماء يتسرب ويغيّر الكثير في طبيعة التربة وصلابة البناء. وينبغي الاعتراف بأن كثرة المعارك تؤدي إلى اكتشاف مذهل: لقد تطبَّعتْ بطباعي وتطبعتُ بطباعها. لذلك نخرج من كل معركة محافظينْ على مكتسباتنا وأسلحتنا التي تظل صالحة لمعركة أخرى. وإذا لم تسر الدفّة هكذا، بين الأعاصير والأنواء، فلا بد من غرق المركب؛ أي الطلاق.

لكن أيّ معركة لم تصل بنا إلى تلك النتيجة باستثناء ضحايا قليلين يرافقوننا في المركب عادةً: كؤوس وصحون ومقاعد مكسورة...

ثمة معركة اندلعت بيننا بسبب صابونة، وأخرى بسبب السكاكين التي تضعها أحلام واقفة؛ أي نصلها إلى فوق، في وعاء المجلى، مع الملاعق والشوكات، فتجرحني عندما أتناول ملعقة.

في البداية أتأملها صامتة، بعد معركتنا، أو مجهشة بالبكاء، فأحسب أنها تشعر بنوع من النّدم بعد محاسبة الجانب المخطئ عندها ـ فأنا أقرّ وأعترف بأننا نتحمل المسؤولية بالتساوي. غير أنني أدركت مع مرور الزمن وتراكم التجربة، أنها لا تصمت أو تحزن أو تبكي ندماً، بل لأنها تعتبر نفسها مظلومة مطلقاً، وأنا الظالم مطلقاً. طبعاً تريد الإخلال بميزان القوى، وتحسين موقفها. أكتشف ذلك عندما ترفع عينيها الغارقتين في بحيرة بكاء وتقول:" الحياة معك صارت مستحيلة!" وأنا كنت أخالها تبكي مثل قطة!

بعد هذه المعركة أو تلك، نعود كما كنا: أستجيب لما تريد، نسبياً، وتستجيب هي لما كانت تستجيب، نسبياً ـ وربما أكثر بقليل ـ لا لشيء إلا لأننا لم نقرّر الطلاق بعد. لذلك لا بد من معركة أخرى في الأفق. وكثيراً ما أسألها بكلّ بساطة "متى يكون موعد المعركة القادمة؟" فتجحظ عيناها من الذهول!

لماذا لم نطّلق ؟

لأنني شخصياً، لست من النوع الذي يسرع إلى الطلاق بسهولة. والسبب هو هذا: أفترض أنني مت سنة 1817 وأنظر الآن فأقول: ما كان الجدوى من كلّ تلك المعارك ثم الطلاق، مع أن الوجود نسبيّ، مجرّد حلم نسمّمه بالكوابيس!

أحلام مظلومة حقّاً. وهي ككلّ الزوجات تتعب كثيراً. وعندما تملأ عينيها بالأفلام والمسلسلات تستنتج أنها لا تعيش، ولم تحقق ذَرّةً من سعادة ما بعد العقدة التي تتخلل الفيلم. كما تتذكّر أن كل الزوجات يشتكين من أزواجهن أمام الأخريات. أمَا هي فلا تفعلَ، بل تمدحني أمامهن. حتى إن إحداهنّ ـ من الخبيرات المجربات ـ نصحتها بأن لا تكثر من مدح رجلها أمام النساء حتى لا تعمد إحداهن إلى...خطفي!

أما أنا فأقول: يا ويلتي! كم خبَّأتْ من أسرار إلى يوم الطلاق! وكثيراً ما تعيّرني ـ وتمدح نفسها ـ بالقول إنّ فلانة تجرأت وضربت زوجها، والأخرى كسرت التلفزة، وغيرها ركّعته حتى يغيّر حفاظات ابنته. وكلهنّ يهجُرْنهمْ في الفراش، وتكون في الأثناء تذرع المشى جيئة وذهاباً، قائلة: "لن أمشي، من اليوم فصاعداً، على أطراف أصابعي، عندما تكون نائماً" وفي هذا الوقت تكون المعركة قد بدأت تهدأ. فأنصحها مغازلاً "لكنني أنصحك بالبكاء في زاوية مثل قطة، حتى يلين قلبي. لأنني أحب أن تكون زوجتي مثل ابنتي"، فتردّ: "هيهات! لن تفرح بذلك اليوم" ثم تتنهد: "لم أرَ يوماً سعيداً معك" ، فأقول لها "السعادة نسبية" وينتهي الحوار هكذا:

- سوف أفعل ما أريد من دون استشارتك! تقول هي.

-موافق! أقول أنا، وأكون في داخلي غير موافق طبعاً.

إذاً، أنا أرفض الطلاق، لأن أحلام صارت مرآتي حتى عن بعد، ولأنني أتخيل احتمالاً آخر، أيضاً؛ ففي سنة 2035 تموت زوجتي ـ أو أموت أنا ـ فأظلّ شيخاً وحيداً حزيناً. تتلاشى تلك المعارك كلها، وأذكرها بالخير. وأتحسر لأنني لم أتركها تعلمني الطبخ والكيّ، وكل شيء أفلح غيرُها من الزوجات في ترويض أزواجهنّ من أجله، تحسّباً لمستقبل تخيِّم عليه الوحشة!

إذاً ـ كما قلت ـ أنا أرفض الطلاق. أمّا هي فقد فعلتْ!

لذلك أقول عنها ما يلي (لأنها بالتأكيد قالت عني الكثير): في البدء كانت غزالة هاربة، ثم أرنباً حذرة، ثم قطة مدلّلة (لكنها ذات براثن!) ثم إوزة تزعق. ثم بقرة. وسوف تصير زوجةً معزى، تلك النحيلة جداً، الضامرة، اليابسة، ذات الصوت الحادّ، وتقابلها فرس النهر: سمينة، برميلة، تأكل كثيراً وتشتكي كثيراً.

لكلّ زوجة طريقتها في تغذية نقاط القوة، الموجَّهة للآخرين، في شخصية زوجها. ينتهي به الأمر إلى الوعي بنقاط قوته، فيدينُ من لا يتمتع بها مثله بين الرجال الآخرين. والحال أن للرجال الآخرين نقاط قوة أخرى، مختلفة، غذَّتْها فيهم زوجاتهم، ولا يمتلكها هو، فيسخرون بدورهم من افتقاره إليها. وهكذا...

تلك هي نظرية الخيوط المرئية والخيوط اللامرئية التي تتحكم فيها الزوجة بزوجها من أجل إنجاح الحياة الزوجية.

النساء للحكم الخفي، والمعلن، أحياناً. فماذا يبقى للرجل؟ مناورات الطفل، سيد اللعبة، في أحضان الأم الأبدية. أما إذا انكشفت هذه اللعبة فلا بد من الفطام المتقطع؛ أي استبدال ثدي بثدي آخر، أو الفطام النهائي: استبدال الثدي بمصاصة.

والآن ؟

يا لتلك الأيام، مع أحلام، ما كان أجملها!

لم أعد أراها حتى أرى نفسي في مرآتها. بل ينبغي ألا أراها، لأن مرآتها الآن تعكس وجه غريمي؛ زوجها الثاني الذي...

فلتتوقف اللعبة إذاً !

أنا وعزّوز المرداسي

كيف تتوقف اللعبة وقد رأيت عزوز المرداسي مؤخراً، فإذا هو يأتيني بأغرب مرآة حتى الآن: هذا الكتاب الذي أتحرّك فيه!

التقينا مصادفة في أحد شوارع العاصمة. وأخبرني بين عناقين:

ـ عدتُ إلى تونس كي أستقرَّ أخيراً، أين أنتَ ؟ سألت عنك كثيراً...

ولم أصدّقه طبعاً. كم مرّة قال لي مثل هذا الكلام، وكرر مثل هذه الجملة، ثم عاد ليسافر من جديد، ويطلَّ من جديد، مكرّراً: " أخيراً عدتُ لأستقر! " لذلك عدت بدوري إلى جملتي المعهودة في الرد عليه: " لن تستقر يا عزّوز لأن إقامتك في غبار خطاك."

رؤيتي لعزوز المرداسي تؤدي بي إلى اختلاط الأزمنة. فما أسرع ما يعود بي إلى الطفولة-كان أكبر مني سنًّا وقتها، غير أن الأعمار تتقارب في أسفل السلّم-قافزاً منها إلى أرض اللحظة. والمزعج فيه، إذا أنت أطلت معاشرته، يأتي من أرضية أخرى يتحرك عليها: كيف؟ متى؟ لماذا؟ وتعليقه الدائم: "الأمور نسبية."

عندما سافرت إلى سورية ثم أقمت في بيروت الحرب الأهلية، فوجئت به يفاجئني بزيارة "أخيراً جئتُ!" قال، فأكملت: " لتستقرَّ طبعاً!" لكنه أضاف " لأثبت لنفسي أنني لا أخاف!" وظل خلال أيامه الاستكشافية الأولى، تحت القصف العشوائي، يراقب الناس وهم يراقبون الطائرات أو دويّ الاشتباكات المحلية. وعندما سألته عن السبب، أجاب: "هم بوصلتي في أرض يعرفونها؛ إنْ خافوا خفت، وإن ركضوا ركضت..."

مُتْعتُه الشخصية بالحياة تأتي من مواجهة الخطر، ثم طَرْحُه. تماماً كما بدأ طفلاً: كان يقطع المسافة من قريته الجبلية إلى مدرسة القرية مرتجفاً من البرد ومن الذئاب الجائعة، والضباع التي لها فتنة خاصة في شل ضحاياها. وحتى اليوم عندما يفتتن عزوز المرداسي بالحياة، يقول: "كان يمكن أن يأكلني ضبع!" وتلمع في عينيه معجزةُ أن يكون المرء موجوداً .

أحياناً لا أفهم الكثير من أقواله إذا لم أتأمل ما وراء كلامه؛ أي الثغرات التي يأتي منها الكلام. لقد باتت الطبقة السطحية من كلامه واضحة الآن، بعد التعرف عليه في مناسبات سابقة. ويمكن القول إنّ وراء ثرثرته الدائمة نوعاً من طبقة أصلية للكلام.

وعلى سبيل المثال، فهو يدّعي البحث عن عمل أينما حلّ. والحال أنه عندما طاف بربع العالم، وحط في سورية ولبنان، مروراً بالعراق، كان يسوقه هاجس آخر، يخفيه كلامه: أراد أن يتزوج من هناك! من أين تحديداً؟ لا يدري! لكنه هرب في الأخير من شموس الحبّانية في العراق، لأنها صيَّرته أسود البشرة، بعد أن بيّضته شموس أوروبا، كما

هرب من الأعمال الميكانيكية(اختصاص آخر يجيده!) في الشام، ومن ضياعه الكامل في البوسفور، ثم في طهران.

قبل أن يفاجئني، عائداً من بيروت هذه المرة، كنت قد رأيته ـ بل وشغّلته حارساً لمبنى لم يكتمل ـ منذ أكثر من ثلاث سنوات.

آنذاك كان عائداً من ألمانيا.

عاد فقيراً على الرغم من الثروة التي جمعها؛ ذلك أنه اعتاد الرمي بثروته مقسَّطةً في بئر لا قرار لها. والبئر هي زوجته أحلام التي تركها وكاد ينساها في بلاده. أما هي فلم تكن لتنساه. كالبئر امتصت كل شيء وعندما التحق بها "أشهدَتْه على متعة الظلمات" (وهذه كلماته.)

وباختصار شديد، وبعيد عن التفاصيل القانونية، حطّ عزوز كالصقر المغترب طويلاً، فاقتيد مباشرة إلى محاكمةٍ سلَبَتْه ثروته أو ما تبقى منها. كانت أحلام قد ملّت الغربة وجفّ عودها أو كاد. فانتبهت إلى أنّ الحياة تمضي. وصادف أن تعرَّفتْ، من خلال ثروتها الصغيرة، على رجل قانون متقاعد. فدلها على الثغرات التي لم يسدَّها عزوز المرداسي، هو الذي كان مغرماً بسدّ الثقوب منذ طفولته، وأهم تلك الثغرات: النفقة!

هكذا امتلكت أحلام كل ما سجلته باسمها، في غيابه، وأجبرته على الدفع أيضاً، أو السجن.

يتميز عزوز المرداسي بشخصية كاتب وفنان وحكواتي وناقد، ومراسل صحفي يجوب العالم. ومع ذلك لا يكتب. ظل أقرب إلى المرحلة الشفوية حتى بعد هجراته المتكررة إلى أوروبا والشرق، وتعلّمه أكثر من لغة من دون تعمق أو اختصاص. "اكتبْ أنتَ. يقول لي، واكذب على لساني كما تشاء. سوف يكون هناك شخص واحد على الأقل في مقدوره كشف أكاذيبك؛ وذلك الشخص هو أنا."

وفيٌّ، لجوج، مزعج أحيانا. مفاجئ بسرعته عندما يلوي عنقه، ويُلحق به كتفه، ثم جذعه، منصرفا عني. عنيد، مزاجيّ، غير أن ثورة مزاجه العارمة تؤكد القاعدة التي تربط بيننا: الحبّ.

وأعترف أنني كتبت الكثير على لسانه، واستفدت أيما استفادة من حكاياته وأفكاره. وذهب بي الأمر، في بضع مناسبات، إلى حد التوقيع بالحرفين الأولين من اسمه. فكان يبدد ارتباكي من إفشاء بعض أسراره، مبرراً ما أدعوه "خيانة " بردّه الدائم: "ما لا يقتل من الأفكار ليس أسراراً".

أما في هذا اللقاء فقد اعتبرت عودته للاستقرار مجرد محاولة منه للاستقرار في محاولات استقراري؛ أي السخرية مني!

حدثني عن مغامراته الأخيرة وهو يترجاني ألا أناديه بألقاب الطفولة، كما كنت أفعل في السابق.

كم هو قادر على الكلام! يستطيع، برحلة واحدة من رحلاته، أو بامرأة واحدة قابلها في قطار الشرق السريع، أن يملأ مجلداً كاملاً. لكنه لا يكتب.

أكبر مفاجأة جاءني بها من بيروت ـ كما قلت ـ هي هذا الكتاب الذي أتحرك ـ ونتحرك جميعاً ـ بين سطوره، في مراوحة بين الواقع والتخييل الروائي، تماماً كما صوَّرتْني ـ وصوَّرتْنا جميعاً ـ صديقة قديمة، اسمها راوية عُمْران، وقد انقطعت عني أخبارها منذ أعوام كثيرة .

من الواضح أنها تقترب من كل شيء يخصني، أو له علاقة مشتركة بيننا. لكنها لا تذكر شيئاً تجهله؛ أي ما صرت إليه بعد الأعوام التي أعقبت تعارفنا.

لذلك لاحظتُ، في جانب كبير، طغيان السيرة الذاتية على كتابها، وإن كانت متفاوتة في الدقة. واستغربت لجوءها إلى ذكر الأسماء صريحة، مع أن نتائج الأحداث التي تبدأ بذكرها، يغلب عليها التكتم.

لم أكمل قراءتها بعد، ولا أدري ماذا ستكون مصائرنا بعد الآن. من المؤكد أن عزوز تعرَّف عليها، وأعطاها الكثير، كما كان يفعل معي، ثم تنكر لما حكاه،حتى لا يخون رُواته ومُدَوِّنيه، تماماً كما كان يفعل معي ولا يزال. لذلك تظاهر، لما سألته، بأنه لا يعرفها.

-كيف جئتَ بالكتاب إذاً؟

-من السوق طبعاً.
-وهل لديك عنوانها ؟
-راسل الناشر وأطلبه منه!
-فكرة!
-كالعادة...لا بد أن أفكر لك!
-ترى، كما فكّرتَ لها أيضاً؟
-ألا تكون أنت الذي سبقتني إلى كل ذلك؟
-لماذا؟
-ألم تعدني بكتابة حكايتي؟
-كيف أكتب حكايتك؟

ويا ليتني ما سألته! فهاهوذا يتدفق نهر كلام.

-ابْدَأْ هكذا: عدتُ فوجدتكم. لكنني كنت أكلمكم من جانب واحد. تتسللون، تهرولون، تهربون ولا تكلمونني. عدت إلى بلاد غير موجودة. فكان أن أعادني صمتكم إلى طفولتي. غير أنني لم أجدها. بت أحرك لساني بوظائفه الثلاث: الأكل والكلام والجنس. فاكتشفتُ أنني كنت ميتا يتكلم، أو حيّا يزور موتى، أو زائراً يودع ما لم يعشه، ومع ذلك يندم عليه. البلاد تصرخ بمناسبة وبلا مناسبة. الوجوه معتادة لكنها لا تخص وجودي. الله بطيء عندكم. لم أعد إلى الواقع؛ عدت إلى الذاكرة...

- أو أبدأْ هكذا: ليتنا نأتي بالشعب اللبناني إلى تونس وننقل الشعب التونسي إلى لبنان، ولو مُؤَقّتاً.

- أو أبدأ هكذا: وحدها أقدامنا لا تخوننا لاحقاً، فيبقى لأحذيتنا القياس نفسه.

- أو أبدأ هكذا: بين الطاعة والوشاية - أي العمل والرّضوخ من وجهة نظر أخرى مستفيدة - لا تبقى منك زاوية متملصة من مسؤولك؛ نقطة داكنة تخفي منك شخصية أخرى محتملة. لذلك يغفر المسؤول ذنوب الآخرين منذ البداية، ويرفض، بل يراقب نقطتك المعتمة حتى وإن لم تكن ضارة. فالسلطة لا تتسامح مع المناطق المعتمة في الكائن. إنها تسوق الجماعات ولا تؤمن بالفرد...

- أو أبدأ هكذا: ثمة لحظة، وأنت أمام الكاذب، تحُس فيها بدغدغة داخلك. كأنها صوت داخلي يقول لك هذا كله كذب؛ وتلك هي اللحظة المواتية لرد الفعل. إنْ لم تمرّ إلى رد الفعل فَقد انطلتْ عليك حيلة الكاذب برغم اكتشافك المؤَقّت لها وتردُّدك في مصارحته. لقد أوقعك ترددك في الفخ: الآن! الآن! عليك أن ترد الفعل!

- أو ابْدَأْ هكذا: أخشى الناس الناجزين مرة وحتى الموت. لكنهم لا يفكرون في الموت، ولا يعتبرونه لغزاً، بل يعتبرونه قدرا. وجدْتُهم قد تحوّلوا إلى طبقة طائرة، وطبقة قافزة، وطبقة غارقة...مع حراك خفيّ بين الأخيرتين والأولى. وجدتهم يستلون مني الأفراح الصغيرة التي عشتها بعيداً عنهم، ورقة ورقة، يؤجلون عودتي وثيقة وثيقة. فأدركت أنني لن أتوصل إلى الإقامة بينهم، إلا إذا فاجأتهم طالباً قبري. عندئذ تكون معضلة استخراج الأوراق الثبوتية مهمة الأحياء، لا مهمة الموتى، كما قال صديقي...

- أو اعتبرْ أنني سافرت مرة أخرى إلى ألمانيا مثلاً، وابدأ هكذا: صرت لحَّاماً - ألحم ولا أبيع اللحم - أقصد سبَّاكًا كما تقولون. وأول نجاح حققته كان بمناسبة إصلاح مواسير السيدة "جرتريد" على مرحلتين أو موعدين. عيناها أوْحَتا لي بهذه الفكرة، وكذلك طريقة استقبالها لي في شقتها. وقبل حلول الموعد الثاني، وضعت الخطط لاستدراجها إلى ما انتويت. وكانت النهاية كما يلي: أنا أركض، وزوجها يركض ورائي على درج العمارة، ممسكاً بـ " شاليمو" الغاز مشتعلاً، نافثاً ناره الزرقاء ورائي، وهو يصيح: انتظرْ! سوف ألحم لك (..ك) وكان أن هربت، وتركت عدّة اللحام عنده!

- أو ابدأ هكذا: نمت مع شقراء، غضّة، بضّة، مبرومة ونارها مطفأة، ومع ذلك هدرتُ مثل نهر، بجانبها، ثم تضاءلتُ، حتى كدت أنام في كفي.

ـ أو ابدأ هكذا: حبكوا الخطة بطريقة محكمة؛ اكتشفتُ الأمر متأخراً، أي متورطاً. وذلك بعد أن سهرت ليلة كاملة مستكشفاً الغموض الذي حفَّ بحركاتهم وتوصياتهم: لقد نقلتُ بضاعة مريبة من دون علمي...لكنني نجحت في المهمة من دون قصد .تخيَّلْ؛ لو تم اعتقالي لسمعتَ بأنني أنتمي إلى شبكة دولية. سوف أنتبه في المرة القادمة. هذا إذا تمكّنت من الانتباه! لأن المرة القادمة قد لا تأتي على شاكلة الأولى!

كنّا في حديقة البلفدير. الجوّ خانق وهو يتأمل البطّ ويثرثر...لا يكف عن الثرثرة... يا الهي!
ـ فكرة! اُكتُبْ عن الحمَّام. اكتب عن المدينة العتيقة. عن ختان النساء. اختَلِقْهُ إن لم يكن موجوداً. اختَلِقْ أشياء أخرى. اُكْتُبْ حكايات أبطالها "دعايات". اُكتب عن الصناعات الثقيلة مثل بذور عباد الشمس، والياغورت، والكازوز،والشوكولا. اِجعل ياغورتةً بطلةً، ودعْ أبطالاً يتنافسوا عليها...
يسكت قليلاً ثم يستدرك :
ـ الأمور نسبية...من يقرأ الكتب اليوم؟ إنه عصر الصورة، والياغورتة تُؤكل ولا تُقرأ. لماذا لا تكتب عن أحلام الناس؟ لماذا لا تستبطن الكلام الخفيّ الذي يفكر فيه الناس في الشوارع، ثم تجمع بين كل ما يقولونه؟ هل أرسل إليك كلّ ما أجده مخربشاً في مراحيض العالم، حتى تؤلف بين أطرافه؟ أما إذا تحدثت عني، أقصد إذا ما كتبت حكايتي، فأتمنّى ألا تكون عاقلاً كعادتك. اعبثْ بي كما تشاء. هل تستطيع أن تكون كاتباً حقيقياً وأنت كالعنكب في جُحْرك الوطني. ألا يعجبك، لو تصفَّحتَ كتاباً يعود إلى ما قبل قرنين أو أكثر، أن تجد مسبّات ذلك العصر، وتفكير الهامشيين، ورؤيتهم للحياة وللأحداث، بعيداً عن كتب التاريخ والأدب والفقه ومراسلات البايات والقناصل؟ لماذا لا تفعل ذلك منذ الآن؟ وإذا أنتَ تحاشيت الجنس والدين والسياسة، ماذا يتبقى لك من الحياة في هذا القرن، وربما في القرون القادمة ؟ أتظل تسمّي نفسك كاتباً ؟
إنه يبالغ دائماً. وأنا أكاد أنفجر:
-متى تكف عن الثرثرة يا عزوز؟
-أشعر أن البلاد صغيرة.
-هي ليست كذلك؛ إنها كبيرة بقلوب أهلها. المشكلة تكمن فيك، لأنك عدت ممتطياً غيمة!
-مـاذا ؟
-وعندما أمطرتْ وقَعْتَ على الأرض.
-ماذا تقصد؟
-أقصد أنك تنظر من فوق فقط ، ربما من الطائرة...
-ولماذا سميتها غيمة ؟
-لأنها تسكن رأسك، فتشوّش رؤيتك، وتعطّل حركاتك...
-وكيف تسكن غيمة رأس إنسان؟
-هذا ليس أنت! أنت الآن تتظاهر بالغباء!
-وما الحلّ ؟
-المعترك!
مشكلة عزوز المرداسي أنه ينطلق دائماً من الخارج؛ مراجعُه أجنبية، ويزيدها اغترابه غربة. وحتى عندما يتحدث عن انتشار الكذب، ينسى أنه استبدل كذباً بكذب من نوعَ آخر؛ أي أنه تكيّف مع أكاذيب سابقة حتى اعتادها. ولما عاد فوجئ بتطور أكاذيب جديدة في غيابه.
-كأنما يتوجب عليَّ أن أبدأ دائماً من منطقة الصفر.
-لأنك لم تراكم شيئاً هنا.
-وما راكمتُه سابقاً ؟

-بنيان على الرمل...
-حتى أهلي...
-صرتَ طارئاً، مشوشاً للتّراتب الذي قام في غيابكَ.
-ألم يعد لي مكان؟
-تحدّثتَ، قبل قليل، عن البداية من منطقة الصفر...
-لكن العمر يمضي...
-لا تنسَ يا عزوز أنك وزّعت عمرك على أمكنة متعددة. وحتى إذا سافرت مرة أخرى، وغيَّرت بلادك ببلاد أخرى، ألا يمضي العمر؟
-يقال إن الحب للحبيب الأول.
-لكنه تزوج في غيابك.
-ماذا تبقّى؟
-ربما الذكرى...
-وماذا تنفع الذكرى؟
-تنفع للمقاومة...
-مقاومة ماذا ؟
-الإمعان في العدم...
-وإذا رفضتُ صفراً جديداً ونويت سفراً جديداً؟
-هو صفر جديد أيضاً ويتوقف على الذاكرة، مرة أخرى.
-كيف؟
-أن تتخلص منها!
-لماذا؟
-لكي لا تضعف مرة أخرى، وتعود.
-لكن الذاكرة تشتغل على الرغم منا.
-يتوقف الأمر على قوة تأجُّجها.
-متى تبدأ بالانطفاء؟
-بتفاقم المرارة، ربما، والرغبة في النسيان.

حيْرتُه الموقّتة، في المكان المتجدد دائماً، تجعله يتخبط فيه، ولا يرى محاسنه. وهذا ما يجعله متأملاً، متعاليا، قريباً من العدمية وإن كان يدّعي النسبية.

كان البط يشق ماء البركة، ويتصايح، ويقفز قفزات بهلوانية بينما الإوز يقترب من الأطفال ملتقطاً ما يقذفونه من أكل.

ظل عزوز المرداسي يتأمل الماء دوائر في دوائر في دوائر...ثم أعلن عن انتهاء جلستنا بشكل مفاجئ:

-لا فائدة... قررت الرحيل مرة أخرى.

لن يستقر إذاً...

أنـا وراوية

وبقيت أنا.

غير أن عزوز الذي دلَّها عليَّ من دون أن يفشي أسراري، دلني عليها أيضاً من دون أن يفصح عن شيء. لقد راقبت ما يرشح به كلامه. عدت إلى الثغرات، إلى الطبقة الأصلية التي ينبع منها كلامه وتكاد تخفيها ثرثرته.

وعدت إلى آرائها أيضاً.

بين السطور في البداية...ثم صراحة. وكأنّ مجيء عزوز، المفاجئ، ثم رحيله من جديد، بحثاً عن الاستقرار، في اللامكان، كانا مجرد وسيلة لتواصلنا الجديد.

أعرف الآن أنها تزوجت. وأكدت لي رسائلها ذلك.

لقد تزوجت راوية صانع كلام من الدرجة الأولى. راودْناها كلنا، فظلت سهلة وممتنعة في آن. درَّبتْنا على الكلام ثم هربت إلى حضنٍ استطاع جمع الكلام كله في تجربة متميزة تأسر القراء، مكتوبة، وتستدرج النساء المهيآت للبطولة، منطوقة.

تزوجت من يستطيع جمع عشاقها كلهم في رواية واحدة، وعشيقاته في أخرى، وربما كانوا يتبادلون الأدوار، تحت سحر قلمه. أحبَّها في البداية، كما اعترفتْ في إحدى رسائلها، بطلةً لكل أعماله القادمة، ثم أخرجها من فردوسه بطلة يائسة، سلبية، في رواية واحدة. لقد تحولت من عليائها إلى امرأة أرضية "حتى الجمال يمر عليه وقت، تطمسه الألفة فيكف عن قدح التأليف ويتعثر في توليد مستويات الكلام..." ذلك بعض ما قالته لي رسائلها المنحازة إلى الكتابة، في زمن يهيمن عليه الاتصال السريع، والمكلف؛ الرسائل التي تبعث فتحرك مستويات الكتابة وتبعث خفقات الروح...

***

عزيزي الطالع من المرايا...

أتدري ماذا فعلت بنا مرحلة ما بعد الحرب؟ إنها حرب من نوع آخر. امتداد أبدي لها. شظايا تخزن الموت في قلوبنا وعيوننا وأسفارنا لتفجرنا من حيث نعلم ولا نعلم، هنا أو هناك في صيدا أو في صور، في طرابلس أو في كندا...

تسأل عن أخباري؟

سيئة حتى الآن والحمد لله؛ وهو أمر يبعث على التفاؤل! لقد تزوجتُ مرتين، لا مرة واحدة فقط! الزوج الأول مات قتيلاً. لم أكد أدفنه حتى نجوت من الموت بدوري، لكن بأعجوبة، وذلك بعد غيبوبة طويلة. ما علينا!

ذهبتم كلكم، بالسفر أو بالزواج أو بالأزمات القلبية، فبدأت أشعر بوطأة الزمن والوحدة. أما فرصة الارتباط التي اعتبرتها متأخرة وممتازة في آن، فقد أتيحت لي في الزواج من رجلٍ غني كان مغترباً في أمريكا اللاتينية وعاد ليموت في أرض الوطن.

لا يهمني رأيك كثيراً. هي لعبة دخلتها. لابد من اللعب. كان طاعناً في السن وفي الموت أيضاً، أردت أن أصير غنية، ولا أبكي مثلكم، معشر الكتاب والأدباء (معشر! لا كاتب يعاشر آخر، وكل كاتب ينبش في دماغه، ويستدرج بقلمه، مقبرة كتَّاب لا تنفك تنفتح على أصدقائه) له ضيعة كبيرة في الجنوب. صحيح أن الحرب تجعلها مهددة ومقفرة حتى الآن. لكنها مزرعة. أتعرف ما تعنيه مزرعة لواحدة مثلي تكاد رئتها تنفجر في المدينة؟

ببساطة انتظرت موته حتى تنتصر الفكرة. وليس القاضي هو الذي ينتظر بل المتهم كما تعرف. وفي انتظار ذلك تسليت بما تخفيه النساء في ضلوع رجالهن. فكنت أختار منهم أولئك الذين مازالت ضلوعهم قادرة على خلق امرأة، لعلني أصنع، بدوري، رجلاً! أتراني أصنع من بقاياهم رجلاً؟

تصور! قذيفة إسرائيلية في غرفة نومي!

كدت أموت معه. وليتك كنت هنا لنكشر في وجه الموت سوية!

ورثة حقيقيون، وآخرون مزيفون، أطلوا من كل النوافذ والثقب. دفنوا أشلاءه. أفي كلامي قسوة ؟ انتهازية ؟ كيف تنتصر الفكر ة؟ والواقع ؟ كيف نفهمه من دون ضحاياه ووكلائه وبدائله ؟
أخيراً... علينا أن نعمق الخيبة ولا نسقط في شراكها.

أحرّ سلام

ملاحظة: على فكرة، إن كنت لا تستطيع دعوتي، لماذا لا تأتي أنت؟ ما أبعدني عن ضلوعك! لا تفكر كثيراً...

راوية

***

عزيزي...الهارب أبداً،

تتساءل عن زواجي الثاني؟

تراجع؛ لم يشأْ أن تكون زوجته واحدة من بطلاته. يريد " ليدي صالونات ومناسبات" فقط. حتى الجمال يمر عليه وقت، تطمسه الألفة، فيكف عن قدح التأليف، ويتعثر في توليد مستويات الكلام. وهكذا استجبتُ لاستيهاماته في المرحلة الأولى، ثم انتهى كل ما بيننا. لقد صعّدت معه عملية إنجاب الأطفال، لأتورط أكثر في عملية توليد المعنى.

ومع أنني أفكر بطريقة هستيرية أحياناً: لماذا لا أتخلى عن هذا العالم المقيت؟ فقد تعرفت على رجل آخر بدأ يغازلني. غنيّ ومُسنّ أيضاً! صدّق إنه باتَ يرضي شيئاً ما في داخلي: أن أجاور الموت وأمد إليه يدي، بينما هو يجاور فتوة الحياة فيَّ، أو ما يخاله كذلك. هذه أشياء لستُ في حاجة إلى تفسيرها لك. يكفي أنها ترضي غروراً ما في داخلي، وربما حاجة إلى الانتقام من نفسي. هل صدقت أني كاتبة؟

فلأعترف لك: الكتاب الذي بين يديك من تأليف زوجي. نعم. على الرغم من وجود اسمك على غلافه. لعبة أخرى دخلتها! وبالمناسبة، أكرر لك اعتذاري عن استهتاره بوضع اسمك الصريح. لقد صدقت حياده الإبداعي ورويت له تفاصيل غروري!

كل الروائيين في الواقع لا يمتلكون أقدارهم ومصائرهم، تماماً مثل الشخوص الذين يخلقونهم أو يمحونهم بجرة قلم. إنهم شحاذون على أبواب الآخرين. عنجهية خلق تتنطح للصانع الأول، لكنها تحتاج إلى الآخرين كي ينفخوا فيها الروح...

اللعنة على كل الروائيين، وخصوصاً أولئك الذين يعرفوننا. إنهم يلتقطون منا ما يشاؤون، ويمسخوننا كما يشاؤون. تفلت منهم أقدارهم فيسعون إلى التحكم في أقدارنا. فهل يتوجب على كل كتابة أن تكون خيانة؟ خيانة الزوجة، خيانة الزوج، خيانة الأطفال؛ لأنها تأتي على حساب الحياة فيهم، وخيانة الآخرين بعد شرب مائهم وأكل ملحهم وسرقة أسرارهم؟

قبلاتي

راوية

***

عزيزي المطمئنّ! *(لأستفزك أكثر!)*

اشتقت إليك كثيراً ...

سأفسر لك حلم التمثال. لا أدّعي أنك رويت لي حلما من هذا القبيل. هي مجرد أدوار مقلوبة. لقد حلمت بأنني متحجرة في حديقة مهجورة. وكان هناك شخص يسدد نحوي سلاحه. فلا يكاد يطلق حتى يرتخي. أحياناً تخرج بعض الرصاصات الرخوة. احترت في تبيُّن ملامح ذلك الشخص حتى بدأت تتضح. بعد ذلك جاء غجر وأوقدوا ناراً تحتي. تحرك ظلي في البداية وبدأ يتمايل على جذوع الأشجار، وما إن ازدادت درجة الحرارة حتى خطوت خطوتي الأولى! أحسست بالهواء خفيفاً، منعشاً، نقيّاً...

حكيت ذلك لزوجي فالتقط الحلم مدخلاً للكتابة. كان ذلك قبل أن يتغير. فيما بعد أدركت أنه لم يعد هو.

لم يعد يجد كتابته. لا أدري إن كان ذلك يتعلق بنضوب موهبته. لقد فقد زوجته وبطلته وكتابته. وكاد يهجر الرواية ويتفرغ إلى النقد. ظهر ذلك من خلال كتاباته الأخيرة في الصحف. وعندما تيقن من تفاهة المبالغ المتضائلة المتأتية من كتبه، ومن أهمية سلاح الصورة في عصر الصورة، ساهم في افتتاح قناة تلفزيونية جديدة، في سياق من الحرية والفوضى أدى إلى ازدهار هذه القنوات في لبنان، مع أن كل التطورات تدل على اقتراب موعد محاربتها.

أنا أيضا، لم أعد أنا. ضعت فيه ولم أجدني. مؤخراً تعرّفتُ على شاعر يغني ويرفض المؤسسة الزوجية. ينتظر أن أتركه، بالتأكيد، حتى يكتب أجمل قصائده!

لماذا نضطر دائما إلى لعب الدور نفسه: نسيان خياناتنا والبحث عن خيانات الآخرين لنا؟

أدركتُ، من خلال كتابات زوجي، أن لا مهرب للمؤلف من وجوده في عمله، مهما عمد إلى التمويه. قد تجده في نظرة، في طنين ذبابة، في موعد يفشل...كأن ينطلق من بذور موجودة في الواقع فيؤلف بينها، ويطورها. ما يهمه هو الصورة التي يحققها أو الموقف الذي يسجله، وليس اقتفاء أثر الآخرين، بما أنهم وجوه فالتة، متحركة، مغتنية من بعضها بعضاً(ابتسامة تلك المرأة وفخذ هذه، مأساة ذلك المقاتل، وانزلاق تلك الخادمة من الطابق السادس: قد تجعل منهم الكتابة شخصاً واحداً) ربما لأنه يبحث عما يجعل الواقع واقعاً، الواقع الفالت أبداً، مُعدداً وجوهه، بينما يظن الآخرون الظنون، ويذهبون إلى التأويل والاحتجاج،(كما فعلت) فتحدث مشاكل عائلية هنا، وقضائية هناك. والحال أن الذي يكتب يكون ضحية وهْمٍ دائم: متابعة الخلق من أجل محاولة الإمساك بواقع يشعر أنه شارك في خلقه، إن لم يدَّعِ أنه خالقه الوحيد. إنه يلعب دوراً، ضمن اختصاصه، وكيلاً لخواء أكبر...هو فراغ العالم منّا برغم كل جهودنا في محاولة ملئه.

تمثالك القديم...

راوية

***

عزيزي العاشق القديم،

إلى الآن لم تحدّثني عن أطوارك وأسفارك بعد خروجك من بيروت. أما نحن فقد بدأت حربنا، أو بالأحرى نتائج حربنا، وما تلاها من حروب أخرى في المنطقة، تفعل فعلها البطيء والفتاك. أشعر أحياناً أن كلّ الحروب التي تندلع في العالم يكون مسرحها ـ إنْ لم يكنْ هدفها ـ لبنان.

لماذا ينزلق بي الكلام ؟

أعود إذاً إلى الفخ الذي رأيته ووقعت فيه.

لم تكن ضغوط الحرب هي الأسباب الوحيدة. كانت هناك المرأة أيضاً؛ المرأة التي ينبغي أن تكون في كل بدء.

لما انتابتني الشكوك وكادت تتأكد، راقبته عن كثب من خلال كتاباته. انطلقت من إحدى مخطوطاته الجديدة ـ ولم تكن أعماله السابقة لتؤذيني كثيراً ـ فوجدت أن التخييل الروائي ليس خيالاً كله. لماذا؟

أولاً، لأنه يكتب على مرحلتين: يضع كتابته دفعة واحدة، ويكون فيها من يومياته الشيء الكثير، ثم يعود إليها فيحذف ويغير ويموّه.

ثانياً، عندما ربطتُ بين تحولاته السلوكية والحسية في الفترة نفسها، أدركت أنه يتغير بسرعة مربكة أمامي. يبتسم، يضطرب، يتهرب...والعشق وحده هو الذي يحركنا بكل تلك الطبقات المتناقضة والمتراوحة بين الصمت والاهتزازات اللغوية والشعورية.

انطلقتُ من مثيل الواقع ـ أي المخطوطة ـ إلى محاولة فهم الواقع هذه المرة (بحثاً عن المرأة التي تسكن ضلوع زوجي) .سألته: أأنت عاشق؟ فارتبك أكثر. غير أن مخطوطته كشفت لي الأمر.

كل ما فعلته هو أنني احتفظت بصورة من صياغته الأولى للمخطوطة. وانتظرت الصياغة الثانية ـ بعد معركة بيننا ـ ثم صورتها أيضاً. وقمت بمقارنة. سطّرتُ كل ما حذفه في الصياغة الثانية أو نقّحه. وهكذا توصلت إلى ملامح أولى، للمرأة الغائبة الحاضرة بيننا، ولحكاية تجري في الخفاء.

عندئذ سقطت بي الشهوة.
ولا أنكر ما قلتَه لي: مازلتُ أبحث عنه، عن ضياعي فيه، فأجدُ نفسي"راويتينْ" أحياناً؛ واحدة تعرفها، وأخرى لا تعرف نفسها.
لقد خفت أن تصدمك صورتي الجديدة، أيها العاشق القديم، لذلك حدثتك بنصف صراحة!

إلى اللقاء

***

عزيزي الذي لا يخون!

نعم، أنت على حقّ. فأنا تحدثت كثيراً عن الخيانة، ووصلت بها إلى مستويات ما ورائية، كما قلتَ، غير أنني لم أهبط بها على الأرض، ولم أشر إلى درجاتها. كأنني قاموس عربي فعلاً:
*خان : أؤتمن فلم ينصح ـ والعهد: نقضه. وخان الدلوَ الرشاءُ: انقطع.
* الخائنة مؤنث الخائن. الخائن باستعمال التاء للمبالغة كراوية للكثير الرواية(!)
*الخوّانة: الخؤون ، والتاء للمبالغة : الإست(!) الخ ، الخ...
ولم أجد في قاموس عربي (ربما لأننا لا نعرف الخيانة!) ما وجدته في قاموس أجنبي:
*الخيانة: اسم مؤنث (1) ـ خيانة المرء بلاده(2) ـ نقض العهد والالتزام ـ (3) ـ فعل جنائي ضد أمن الدولة (4) ـ قانون : الخيانة العظمى: جريمة يقترفها رئيس الجمهورية، مخلاً، في خطورة، بالواجبات التي تتطلبها مهمته. وتنظر فيها محكمة العدل العليا.(لاروس).
إلى اللقاء وعذراً على هذه الرسالة القاموسية!
ملاحظة: وأنا أنقّبِ عن الخيانة (ومشتقاتها) في القواميس لا في الواقع (أعدك بذلك في رسالة قادمة:ولتنفجرْ!) جاورْتُ كلمات أخرى(مثل الخداع، الكذب، الخذلان) وتوصّلتَ إلى هذه اللّقى الطريفة:
الظبية الخذول: هي التي تتخلف عن صويحباتها وتنفرد عن القطيع. وكذلك في مجال الكذب؛ فالكَيْذبانة والمكذبانة هي الكثيرة الكذب.

دمتَ لواحدة منهنّ
صديقتك الكَيْذبانة!

***

عزيزي الذي لا يكف عن...الموت!

لماذا، بعد اكتمال الخيانة، تجنح بنا الكلمات إلى ملاحقة الخائن بكلمات هادئة؟
نبدأ بالسخط عليه وعلى أمه (على عضو محدد فيها) فهو بعد ولادته، وتجاوز طفولته الأولى، لم يكفّ عن التبول في فراشه. لذلك يستجمع ضعته، عازماً على الوصول، قبل الآخرين الذين يتفوقون عليه في كل شيء، بما في ذلك توقفهم عن التبول في الفراش منذ طفولتهم المبكرة. لقد بدأ بالطاعة خوفا من أمه وأبيه، وانتهى بإطاعة رؤسائه كي يحاذيهم متحركا في حيز للمرؤوسين والرؤساء الجدد. ردمَ تأوهاته، على عتبة الفقر والبشاعة وعُقَد المراهقة، ببريق السلطة والمال. وتسلّى في طريق الالتزام بالقضايا الحاسمة، بتحرير رغباته المعرقلة، حتماً، لقضيته الكبرى...
هذا "بورتريه" مجرد! أين الملامح ؟
خذ قرداً؛ ألْبِسْهُ سترة تفيض عن اليدين. ضع له نظّارتينْ، ولا تركز كثيراً على شفتيه المفلطحتين،

وشعره الوبري...

أهذا تكثيف أحادي؟

إذاً، اجْمَع الباطن إلى الظاهر. وارمِ بين يديه بمسؤولية محدودة لترى إلى أين تصل حدودها. يموت ألف، ألفانَ...خمسون ألفاً...ويبقى. ثم تَجده في المكان الأجدّ. كأنَّ شيئاً لم يكن. فهو لا يزال يطيع محصَّناً ببركة الشهداء.

وجدوا بائع الحلويات عميلاً *(أخذوني وأخذوك،ولم نكن لنخون)* واكتشفوا بعد احتراق البلاد أن المجنون أبا الريش كان جاسوساً *(أخذوني وأخذوك ولم نكن لنخون)* وانتبهوا إلى أن ذلك المسؤول، الكّيس، الاجتماعي، الطيب، النظيف، كان يتجول كالرخّ على الرقعة، ما بين مكاتبهم وبيوتهم *(ولم نكن لنخون.)*

فلماذا أخذوك وأخذوني ؟

لا حاجة إلى أن تكون ثمة مشكلة كبيرة : لنقل أن لك صديقاً *(كان صديقاً!)* وأنت كعادتك لم تكن حذراً. انتقلتَ من المجاملة إلى قول رأيك. فانتقل بدوره، من الاستقواء عليك إلى الاستعداء. ومن المؤكد أنك مازلت تتساءل مدهوشاً إلى اليوم: كيف لم يطلق تلك الرصاصة! *(تَذَكَّرْ: كنتَ محظوظاً بوجود آخرين!)* قال إن لك علاقة بالنصف الآخر من بيروت، والنصف الأسفل من لبنان، والعيون المتربصة عبر العالم. وعندما تحصنت بمن تعرف من مثقفيهم، عيّروك بما يفعل بهم مطار بلادك!

كان هناك خائن أول في بيروت.

وكان هناك خائن ثان خارجها.

أما أنا وأنتَ، وأمثالنا، فقد غطّينا على هذا وذاك!

منذ البداية، قلت لك إننا نشبه حديقة حيوانات، يؤمها زوارها القريبون والبعيدون بالفرجة والاستفزاز والمكسَّرات، بعضها ينفق، والبعض الآخر يتابع التكيّف مع القضبان. التفتْ إلى الشهداء وسوف تجدهم نوعين: الذين ماتوا، والذين، مثلنا، لا يكفّون عن الموت.

صديقتك: الظبية الخذول!

***

عزيزي البعيد القريب...

لمَ لا تأتي؟

أَحتاج إلى الكذب، إلى مزيد من الكذب، ربما أصارحك أنت فقط، لأنك بعيد *(لماذا لا تأتي كي نتبادل أكاذيبنا!)* مَنْ يُحبّك كاذباً، ويغادرك كذلك، تتركه بدورك ـ وكأنك قد قتلتَه ـ لكنْ بعد أن تستولي على سلاحه. أنا، فاتني ذلك! لذلك أحتاج إلى الكذب، إلى مزيد من الكذب.

الكذب اقتصاد في الجهد. تصريف للعنف عبر قناة أخرى هي الكلام. أعود فأسألك: أصحيح أن كل كذاب، كان من حيث النشأة، بوّالاً في فراشه ؟ الصغير يكتفي بإخفاء اللعبة، أما الكبير فينكر وجودها أصلاً... عبر الكلام.

الكذب يجعلنا نرى الناس والعالم من خلال موشور أقرب إلى عيني ذبابة أو يعسوب: هكذا نكشف الهدف الذي نريد الانقضاض عليه.

في البداية كنت أكشف الكاذب ولا أقول له أنت كاذب.

في البداية كنت أتساءل: يا الهي كيف يُصنع الكذب؟

الآن صرت أتأمله، وأهيئ نفسي لكذبتي الأولى: كذبتي الأكبر، من أجل الانتماء، والانطلاق مثل السهم إلى...هدفي.

الكاذب، مثل الخائن، فندق له غرف عديدة، ومفاتيحها في أيدي الآخرين.

وهم أصناف ودرجات، وفي عدد النجوم: الكيّس، والهارب منه إليه، والمدافع عنه، والمتعامل معه

كأمر واقع، وكاذب الورشات الصغيرة، ثم العادات والتقاليد، والخطاب السياسي العام والخاص، والأمم المتحدة، والنظام الدولي الجديد، والعولمة، وصولاً إلى الكذبة الأساسية الأولى التي أريد الإتيان بمثيل لها، كي أقترب من الفهم أكثر: الوجود.

صديقتك المكذبانة

ملاحظة: متى تقرر المجيء ؟ أنا في انتظارك. قبلاتي...وأشياء أخرى!

***

وهاأنذا.

قرأتها. قرأت استفزازها ورسائل جسدها بين السطور. جسدها الذي يكتنز فيحقن لغتي، ولا يفتح لي ثغرة واحدة، إلا ما يجود به شقّ فستانها الطويل في انتعاظ يزداد تأجُّجاً على ركبتين مضمومتين.

جسدها الذي يبكي فيربكني، ويضحك فيبكيني.

جسدها الذي يعود ويدلني عليها، فأمحو أولى خطواتي المتعثرة إليها، فشلي في النفاذ إلى تثاؤب ثوبها، وعودتي بغير توليد الكلام واحتقان المعنى.

جسدها الذي يجعل الألم كثيفاً شفيفاً، مبهجاً موجعاً، باطلاً حقاً...ثم يأتي الكلام.

جسدها الذي يُصمّني عن أصواتهن، ويُعميني عن تزاوج لحظتي مع لحظاتهنّ، فلا أبحث عن المرأة الفرس، والمرأة الغَزالة، والمرأة الصورة... ثم يأتي الكلام. فلا يكاد يقتنص التماعةً خارجيةً واحدة يبرق بها صندوقٌ فضيّ صغير، متأرجحاً بين نهدين، ومغلقاً على...وهم آخر. بين جسدها الذي كان، وجسدها الذي يكون، كيف ستلوح لي، الآن؟

وهاهي ذي، في آخر رسالة منها، تراوح بين الاستفزاز والتهديد، وتقترب منّي أكثر:

عزيزي المطمئنّ دائماً!

تستبدّ بي فكرة مجيئك؛ وإلى الآن لم أتجرأ على استخدام الهاتف مراعاةً منّي لكينونتك العائلية. أكرّر: تستبد بي فكرة مجيئك. تستطيع أن تجد ألف مبرّر. إن لم تفعل قريباً، فقد تفتح عينيك صباحاً على جرس بابك يهزّ قلبك، أو بقسوة أقل، برنين الهاتف يخلعك من نومك: "أنا راوية وقد وصلتُ!" وعندما تسألني: "وصلتِ؟ أين؟ من أين تتكلمين؟" أجيبك: "من مطار تونس ـ قرطاج، أيها البطيء الخذول!"

اهتف لي واخبرني...

راويــة

وللخروج من هذا المأزق، وجدتُ أن أفضل طريقة للقائنا، ببعض الجهد، منّي وليس منها، وبأخف الأضرار على أية حال؛ أن أتبنّى فكرتها التي جرّتني إليها جرّاً:

-آلو! راوية ؟ أنا في مطار بيروت الدولي...

ثمار على الضفَّتين

لم أخطط لشيء. انقدتُ إلى ما أحسستُ أنه يناديني فيها: جسدها. تيقنت أن الذكرى، برغم تأثير الزمن، تظل تفعل فعلها بين ضلوع الرجل، ولا تقتصر على مجرد زاوية ضئيلة في دماغه. هكذا تتبلور الأنثى فيه. ثم تتحول، في عزلتها، إلى رجل خائف يستنجد بالأنثى.

تداخلت أزمنة وأمكنة في هواجس. صرت أنا مرّات، وآخرون يخترقونني. أهكذا يعمل الدماغ في الصّمت، في العزلة، في الانتظار، بينما اللسان يفرز ويرتب، بينما القلم يحتار ويختار؟ كيف يمكن أن تأتي الأفكار متطايرة في طائرة ؟

أستبق وصولي إليها أمدّ يدي إلى حضورها الغائب راوية يا راوية ثم ماذا أيكفي راوية يا راوية هيّا احتمتْ بي وضعْنا حدوداً للمستقبل جلستُ الساعةُ متوقّفةٌ وعقرب الثواني ينطّ في مكانه يريد ولا يستطيع بعوضة ذبابة قصصتُ أجنحتها هل أنت عاشق ماذا أهكذا يبدو العاشق ماذا فعلت عندما جلست بجانبك كلماتك ترن في الماضي لماذا تظل الكلمات ترن بعد رحيل أصحابها لا تبكي يا راوية سأحكي لك حكاية جنيات ثم نزور جزيرة أعرف يبدو أنني بدأت أحبك مرة تيجي لعندي مرة آجي لعندك الزوج لم يعد هو ما أفعله أنا يفكر فيه هو الرجاء الإقلاع عن التدخين وربط الأحزمة وظلت تبتسم لأنها مراهقة تنظر في المرآة ابتسمت لي هي أيضاً كرهتْني لأنها ذهبت وحدها تقطف الكرز من أجل الدنيا تنتهي نأخذها فرصاً لم نكنها ظلالاً على الوداعات الأخيرة وحشة شوق هل يمكن العودة لسانك التهم كل شيء متكلّماً بالقبل عدتُ إلى متى فضعتُ في أين مازالوا يتعاركون في داخلي وكاد يسحب مسدسه الذي أخفاه عني في الخزانة أمسك به أخوه خرج لساني بالشرّ كلّه ولما جاء لم أستَقْوَ عليه في غابتي كما استقوى عليَّ في غابته مرقوا الخيالة ع الخيل صراع أرباب في أثينا ومات الشهداء قلت له لا تمتْ نعود إلى تونس خيار الآخرين والبحر وعدن وقبرص والجزائر وتحترق خسارة الشهداء كذبوا على المستقبل وفي داخلي كذبتُ وخربتُ حتى يزداد الشرُّ في العالم أهواء كثيرة كسول مثل اله قديم يا رزيل نائم على الورق أستاذ الأكل تفضّلْ يروني منضبطاً وهو يشرب لكي ينساها والآن أراك اثنتين قال لها عندما انتهى الزلزال قَبَّلها بين الأنقاض هي أيضاً قالت لا أشك فيه لأنني أريده أيها البَحار الغريب بمسدس على الشاطئ السر ليس خطراً عليك بل على من تُطلعه عليه فهل خفت من سرّه نعم رجعت صرتُ أراه مستلقياً يلقّحني بسره وأنا أقول له أنت وهو يقول لي أنتَ جعلتهم دوائر في دوائر في دوائر وأقطاراً لا يمكن أن تخلط اللبناني بالسوري بالفلسطيني بالعراقي دوائر في داخلي أزورها أقطاراً أيكون الفلسطيني ضحيّة فقط لماذا لم تفعل ذلك منذ البداية احك لي حكاية ساحرات قلبي متهيئ ستدق الجرس قلبي متوفز سيرن الجرس ومع ذلك دقت على قلبيَ عاد النشاط إلى الماضي وخاف الطفل غادره حُلمه وصار يهدده كان موجوداً في اللغة قبل ولادته يسمع مثل أفلاطون في كهفه رائحة تربة محروثة نفخ في البوق اهتز جسمه مرهقة والعاشقان الجديدان يلقيان بالسجائر شبه كاملة في منفضة الرماد من السديم إلى الروابط والرموز والإشارات والمعاني على هيئة أشباح مرئية أستاذ قهوة وإلا شاي هاتي هاتي نصف الشفة يا لؤلؤة ذلك ما يحدث في الفرجة التي تفتحها هاها إنه يضحكنا يريد أن يكون كثيراً عليه أن يكون أولاً ماذا خلف الحائط كنتُ أفرضه على أبي وأمي اصطدم الأبطال كُوَيْرات لا تمسك بغير الأشياء التي تأتي وحدها مسامير كثيرة ويساعد في حمل السلة لمستقبل باهر انظروا انظروا الكبار ناموا لا بدّ أن تفتح العين أيضاً رأت العالم فخبأته يا ذات الحلم والعين الثالثة أين قلبك لاستيعاب الحضارة البرد القلم يتسرب إلى حيث لا تريد يقتلوننا كما يشاؤون ثم جاء الغجر وأوقدوا ناراً وهم لا يمتلكون مصائرهم وأقدارهم مدح الأوطان وجلب النائحات من المغرب الأعضاء موزعة على الشهوات ومنْ تكون إذا كان على ثديها شعر حديث الحلاقة متعبة مبتسمة مشتكية مطاوعة لماذا لا تتغير الأمور تماماً تسفيليّ شبق حتى يبلغ ربيعها وصيفها واليوم إنها أكثر غموضاً حين تتضح كلهم يقلعون معي حوار ضمني بين الكاذب والضحية سفاد الفحل ونزْو الأنثى والخوف من الله والدولة والمرأة فيبدأ بالمخدة ويصوب سمّاها الدريئة ينوِّع لو خرج كل شيء واضحاً لأنقذت نفسك من أصحابك والأشياء وحدك تكلمها وحدك تجيء التفكير في شيء وقول شيء لحظة تتكرر مع ظهور شخص فكرت فيه هروب إلى الأمام حالة الكذاب ارتباك امرأة تريد ولا تريد في مكان واحد وزمن يمرّ نظرة من فوق صرصور العودة الأبدية والتمرن على ذلّ

العبد ما يبقى للجسد من تآكل الروح والعكس تآكل الجسد محاولة استرجا ع مشاعر سابقة لأجيال فانية يَدُكَ على كتفها ولا تعرف متى تزيحها الإثارة الخاصة بالأماكن الخالية صعوبة الحوار مع المتكلمين هستيريات التعبير ذكريات تدعوك فتذهب ولا تجِدها احتكاك الأجساد خفية حيل الأعمى حيل الشيخ شذوذ سائق التاكسي الشبابيك المفضوحة عَرَضاً الكلمات التي لا تشبه الأشياء قلب الألماسة تحويل العنف تحويرِ العلامات تحوير سلوك الخصم بحجم المعلومات الوقواق كنت أحلم والأولوية لما هو غير موجود رانْدي فو أراب البلاد هذي البلاد أذيّة ردود فعل الأفراد طريقة الغزل التّصليحات الله غالب عربية قحة طيارة بالفقهي أُون برانسيب وي تعني لا الأعذار نفسها عرب بالرسمي تكشيرة الموت تكمبيص ومصالحنا والاعتبارات الخارجية والرأي العام في حالة خطورتها تتخلّى عن المنطق هو يتركها أو هي لعدم فهمه علوش زقوقو ملوخية كفتاجي بريك كعك الورقة الأقدام كثيرة فضائل الكلام ورذائل الصمت الكلام متكسر صنعتها يد الإنسان وها هي ذي تفترسه وانكسرت أصابعه الصدأ يأكل المعمل يخبر نفسه فقط العالم وما جرى فيه مازالت

السفينة

مانيزيا

كهرمان

قطار الشرق السريع الخ...هل يختفي وراء صخرة المجْرَى لعبة النرد يغسل اسمه دائرة حول مربع لا يدور والكاتب طفل وحيد أعزل يرمي بالنّرد في مربعات بئر فندق إوزة وردة مثلا بندق للسّنجاب يحبون الحياة بلهفة لأنهم سيموتون بسرعة فتْح أقواس صغيرة تكبر دائماً لم يحدث شيء للبطل غيره فكر فيه وعاشه عودة الخنصر ينكش الأنف تقنين الشهوات العودة إلى سبع طبقات فوق إيثاكا حتى لا يأبق العبد القصير يبقى قصيراً سهرات وهو يحكي لي قال كنت فرصاً موجودة وبشكل مباشر إنْ لم يكن في الأحداث فالحكاية تخرج منه عدّدْ نفسك إذا أُعطيت جريمة ولم يُلق بها من الشباك يحركنا هو لا العكس لأنه يخاف الصورة العجوز الشهرة حرب الخليج في باريس للقضَاء على كثرة الذكور ثأر شهرزاد فخّ الكاميرا ولن يزيده وقوفي معه قوة على خصمه توتر اليوم هدوء الغد وعادوا إلى التساؤل عن الأسعار لا أبيع بسعر يخاطب شعباً بالبريد لا أبيع نفسي بسعر اليوم أهي مَلَكَة تكتسب خطاب مزدوج حتى ينخدع الخارج بالداخل العين بالقلب السينما وعلم الاناسة الورقة الورقة الورقة معاليم وساطات لا للرشوة قتل الريبة والاغتراب غربته عودته الأهم كما يقول الفلاسفة يعطيهم الصحة من المحيط إلى الخليج ضحك ضحك على عصيدة الزّقوقو ثم بدأ يُعجب بها فهمْتني معناها إيجا نقلُّك بيها بيها فرْق ثلاث نقاط على القاف جيم مصرية وأنت مضطر للغين وَالكَاف كلّ ما تحت سقف المشكلة جزء من المشكلة موعد الغد بيع الأثاث تعرف برشَة ويعيّشكْ وننجّم والكسكسي حركة الأشياء تكلمنا الباب ضربني السلّم أوقعني الحذاء ضربني القميص إيش بيه صغرْ عليّ الحدّ الأدنى من المناصب اغتصاب جماعي ينطق جيداً الحدّ الأدنى من المصائب لا يُتأتىْ إلا أمام الغريب أحياناً يجد كل شيء ويبقى يفتش عن شيء الجنس يتأرجح تراجيديا كوميديا يطّور شبهاً بأمه يصير أُم نفسه العين ذكر إذا حدقتْ لا تنسحب بكتفك للعابرين والعابرات مصاب بحمى التأويل يأخذ موقفاً انطلاقاً من المستقبل المتردّد مثل الأرنب الفاعل مثل النمر كانت أمي أرنباً وأبي ارتباك اليدين ونسيان المفاتيح أصبح لديه حيوان قارض عندئذ ينسى أين هو من طرفيْ السلّم البسمة في الأسواق السياحية الكرة من فوق فندق خمسة نجوم الحكايات في الشارع تسرق حجراً من مدينة بُنِيَتْ حاصر خصمه وعلَّقه على خازوق محبَّة وأنت تعمل ولا تنتج شيئاً كبير القلب سريع التأثر عضَة كلب أول اتهمه حارس الحديقة بسرقة البلدية وهو يبول لا بدّ أن صديقاتي أيضاً ملَلْنّ أزواجهنّ وأصدقائي والحياة أوروبا سكّرتْ نضج التاريخ يكتشف مواضع في الجسم قابلة للاكتشاف هذا ذئب سحلية دودة ميت يتكلم الوطن في خطر الآثار تطور الفكرة الآن مكان الماقبل زمان والمابعد نقد أوهام الذات يَطْمئنّ لأنني فكرت مثله الأنوات الفاشلة والأنوات الناجحة في غيرها هروب من الحدث والإيقا ع لو سبق حيِيْوانُ آخر لو ولدْتُ قرب

البحر لو بقيتُ ذلك الغياب تركيز على عماء النص لا على وضوحه فتح فخذيْ الرواية باحثًا عن لذّة النّص سبقه الناشر والناشرة الأنا الكاتبة الأنا العائلة الأنا الخائفة الأنا السالفة ولم تأت بعد نزعتُ اسمه ووضعتُ اسمي لأنه كان يمشي في آسيا وهو من أفريقيا ويحلم بأوروبا فهاجر إلى أمريكا هشاشة ما قبل النوم العدّ حتى الخمسين تستوي الأشياء نسيان تغيير الجلسة الخطأ بطّة على حافة الشلال أول مرة كان غريباً جريدة في غابة ترويض الموت مختلف أنواع الشذوذ البهيمة الغافية مقدسة تقود العالم خائفاً من يوم الاثنين بفلسفة ضاحكة البداية ليست أفضل لكن في مكان آخر وجهها جسدها المسدس شابت قليلاً طُوء طُوء هذا خطر وأخذ منه المسدس يتبنَّى نصيحته وينكره لا صديق قبل الطريق حتى يهبط معي كلهم يهبطون معي

ـ سيداتي سادتي اقتربنا من مطار بيروت الدولي، الرّجاء الالتزام بتعليمات الهبوط ، درجة الحرارة الآن...

بين ليل، ونهار يسكنه الليل

(1)

استقبلتْني بابتسامتها النّاصعة مطوَّقة بنداء مكتنز، فإذا الذكرى تربك الحركة والكلام أقل من إيصال النداء:

-راوية !

كانت ترافقها فتاة أخرى سوداء، زنجية تماماً، قدّمَتْها لي مبتسمة :

-شروق !

ابتسمت شروق وظلت صامتة طيلة انتقالنا من المطار إلى البيت.

خطأ آخر في السعي إلى الاختزال. أعرف أنه يصعب إيجاد علاقة حبّ؛ أقصد إحياء علاقة، لم تكن علاقة حبّ حتى من طرف واحد. لا أستطيع الجزم كيف جرت الأمور بالنسبة إليَّ. أعرف فقط ما كان يدور على السطح ويولِّد الكلام، مع التوغل في المحاولة. فتبكي وهي ممسكة بيدي. لو بُعث الميت...إلى أي حبّ يعود ؟

من الأمام، أنحرفُ ببصري كي لا تكشفني عيناها المتلصّصتان، ومن الخلف أخبّئ رذالة.

بيروت.

ذكريات نعود إليها فلا نجدها، وأخرى نلمحها، لكنْ تحت طبقة عنصر فالت: الزمن.

بقايا عزّ قديم. سيدة تتذكر. ابتسامة وراء زجاج مثلوم.

في العيون حروب قديمة. إحباط وحكمة. خفة وحرير لسان. مسدّس ووردة. جمرة للنارجيلة لكنْ من خشب الأَرْز. والليرة بالأكداس على بساط الشحاذة.

راوية.

امرأة من طين مقدس، بنصيبه من الدنس. زحف العمر علينا، نراه على وجوه أصدقاء لم نرهم منذ زمن.

-لم أصدق أنك ستفعلها وتجيء!

بلغنا زمناً، هو مكان في العمر، تستهوينا فيه العودة إلى الماضي، فلا نفكّر كثيرا في المستقبل لأننا بلغناه، أو على الأقل، لأننا حاذَيْنَاهُ. ويذْكرنا الموتى أو نذكرهم لأن الحوار الهامس بيننا صار ممكناً.

-خالد حسين مات أيضاً...أزمة قلبية.

ما من إشراق بعد ذلك في جغرافيا الأربعين، ما من حاجة إلى الاستباق. تكون الهزة أقسى ونحن ننتظر رنين الجرس...تكون أشد مما لو رنّ كعادته من دون تهيُّؤ وانتظار.

-ألا تعزّيني ؟
أبتسم ولا أستطيع. أأعزّي عودتي إلى المكان أم إليك؟ أخرج من شراك المجاملة وأتكلم أخيراً
-راوية !
-نعم.
-أما زلت تلك اللوزة المغلقة؟
اتكأتْ بشعرها الطويل على كتفي وقالت ضاحكة:
-مغلقة ؟ يا رذيل ؟
والتسرُّب دائماً عبر مجرى للكلام يفسح المجال للتأرجح ما بين الجدّ والهزل:
-ألم تكفِّي عن عادتك؟
-أي عادة ؟
-صناعة الرجال!
-مع إخفاق دائم، والحمد لله!

عندما تظهر لنا امرأة حب قديم، نمدّ إليها يداً، وكأننا نحاذي الغياب: قطف تفاحة ناضجة من شجرة بعيدة. متاهة في الزمان، وفي المكان أيضاً. تحويل الاستيهام إلى حدث.ا لحلّ في السينما:تصير الأنا هو، ثم يعود المتكلم إلى أناه ليكتشف أنه المعنيّ بالأحداث السابقة، لكنْ في الخاتمة.
أما البداية فيمكن أن تكون هكذا: أزيز طائرات، صفارات إنذار، ملجأ...أو غرفة على السطح، كوة، شعاع ينطلق كالسهم، يبلغ الهدف: امرأة. المرأة ترفع يدها إلى جبينها تقي بها عينيها...وتبدأ رحلة البحث، الضياع، المسلحين، العودة، وفي الخلفية تكون هناك عودات.
كلّ ذلك من الماضي. والآن؟ لا بد من إيجاد معادل، بالصورة، للمشاعر المستعادة، على خلفية قطف تفاحة من شجرة بعيدة. مثلاً: يحني الرجل رأسه قليلاً في الفراغ، يهمس، لا نرى أحداً بجانبه. ثم لقطة أخرى، على بعد أمتار قليلة، حيث امرأة تدني رأسها وكأن هناك من يهمس في أذنها. ترفع شعرها بيدها. يحمر خدّاها فتزداد إشراقاً. تبتسم وتقول بصوت عال:
-يا رذيل! مازلتَ كما أنتَ!
يقول لها:
-أعجبني ما كَتَبْتِه عني في روايتك!
-ألم أقل لك إنني لا أكتب روايات، وزوجي السابق هو الذي كتب حكاياتي بعد الطلاق؟
-لكنها تحمل اسمك الصّريح، اسمك الكامل، راوية عمران، وكذلك اسمي. أكان زوجك على تلك الدرجة من التحرر؟
-لم يكن كذلك، بل صَار. وجعلني مؤلفة، من باب التمويه، كما قال لي.
-هذا ليس تمويهاً، مادمت موجودة في الواقع، واسمك في الكتاب.
-في البداية انزعجت، لكنَ المشكلة انتهت...
-كيف؟
-أدرك الجميع أنه هو الكاتب.
-وهل حكيت له كل شيء عني؟
-لم يكن ثمةَ سرّ، خصوصاً بعد أن حكى مجرّد جزء بسيط من كلّ شيء يخصه.
-متفهّم ؟
-الغاية الأدبية عنده، تبرّر الوسيلة الأخلاقية؛ أي أنه يبحث عن بطلات...ثم يتركهنّ.
-أكان لا بد من الزواج ؟

-رفعني مثل بطلة، في الواقع، وأسرني مثل طريدة في كتاب.
-أما زلت تريْنه ؟
-مصادفاَت أتلقّاها بابتسامة مصطنعة. لكنه يتسقَّط أخباري...
-وأنت؟
-أفعلَ ذلك أيضاً.
-لماذا ؟
-لغز في الكائن...ربما من أجل إلغاء الذكرى بخلق غيرها...

لبَيْتها أيضاً ملامح عزّ قديم، يلوح أثره في الأثاث. شقّة واسعة في محلّة الحمراء. طابق أخير يشرف على بيروت. قاَعة جلوس تتسع للوقوف وللحفلات أيضاً "هذه غرفتك" قالت لي، ونبّهتني إلى أن شروق صمّاء لكنها تتكلم. كلاّ، ليست خادمتها كما اعتقدتُ. جاءت من الضيعة واستقبلتْها عندها.
-اكتملت الدائرة: راويةُ الكلام وشروق الصمت!
-أما هي فشروقها في داخلها، هل أعجبتك؟
-لها جاذبية خاصة.
-لم تعرفها بعد.
-وهل عرفْتك أنت حتى أعرفَ مفاجاَتك؟
-وهل تعتبرهَا مفَاجأة ؟
-وجهك الآخر، ربما ؟
-أسود ؟
-أقصد راوية القابعة في عتمة الداخل.
-أتظنني باطنية إلى هذه الدرجة، حتى وإن كنت من الجنوب؟
-لا تعنيني الطوائف، وقد تعاملتُ مزاجياً مع مذاهبكم كلها. صحيح أنني خرجت منكم على هيئة طوائف، بالمعنى النفسي أقصد، غير أن الكثيرين عندكم تساءلوا آنذاك...
-تساءلوا ؟
-أحد المتخصصين سألني منذ أعوام: لماذا لا أراك إلا مع الشيعة مع أنكم طردتموهم من بلادكم!
-وبمَ أجبتَ؟
-بين المزحِ والجّد طبعاً:ربمّا طردناهم و...تركوني!
-وحافظتَ على التقيّة؟
-بل كشفتُها!
-لماذا؟
-لأني ضيَّعتُ الأثر.
-ولم تعثر عليه من جديد؟
-وجدته صُوَراً.
-صُورَه؟
-صُوَرَنا
-أي أنه...
-لكنْ مع سخرية متعالية من فوق!
-وكل غياب عندك يعني...

-لا يعني، بل يزيد الصورة تأجُّجاً.
-وغيابي أنا ؟
-تأرجح بالصّورة بين الرماد والجمر.
-ولِمَ جئتَ؟
-أتَطردينني؟
-بل أتغنج !
-أتضعين قناعاً من أجل تمديد حالة الغياب ؟
-وهل كنتَ قناعي ؟
-مع أنّ نزع القناع يكشف الواقع أكثر.
-لكن المهمّ حركة الكشف: ينبغي أن تتقدم مقنَّعةً.
-لماذا ؟
-لكي تهيئ الفخّ...والطُّعم. هل أعجبتك شروق ؟
-لماذا تلحّين ؟
-أتكلم بجدّ. ألم تلاحظ نعومة ملامحها ؟
-مع أنّ جنسها نادر هنا !
-ربمّا تسللّ من ليل التاريخ.
-علاقة صداقة فقط ؟
-ماذا تقصد ؟
-تزاوج الليل والنهار!
-يا رزيل ! متى تكفّ ؟
وخبطت على صدري.

(2)

يمكن لمن يطيل الإقامة أن يكتشف نوعاً من تداخل الألفة بينهما مع رجحان كفّة هذه، حيناً، وكفة تلك، حيناً آخر. شروق تزحف بصمتها، أو بكلامها المرتبك، وتتحرّك في كل مكان. فتتوصل إلى استغلال طيبة راوية، في درجة الحد الأدنى التي يمكن أن يكون عليها الاستغلال (إقامة مجانية، مصروف جيب، بعض قطع الثياب...) كأن ما بينهما هو اتصال وانفصال عند الخط الأبيض عندما ينسل من الليل مقبلاً بوميض غيابه، من ليل البارحة، محمَّلاً ببقايا سواد ونعاس.

غير أن صمت شروق المتحرّك في الليل، يوحي بحضور لغة من نوع آخر، قد تكون لغة عرّاف مقبرة، مُطَّلع على السرّ ومشارك فيه، لكنه يستطيع إفشاءه أيضاً، على الرغم من كلّ التطمينات. صباح الغد قلت لراوية:
-إنها جميلة حقاً !
-هَهْ ! نطَقْتَ أخيراً !
-بعد أن خرجتُ من صمتها.
-بل من غيابها...ولو كانت هنا لما تكلّمتَ؛ ما الذي أعجبك فيها ؟
-قامتها، قسمات وجهها، حركتها في الليل...
-ماذا تركْتَ ؟
-تركتُ ما تخفيه هي؛ المادة التي يخرج منها التمثال.

-الله! دلالات متعدّدة.
-الفيلسوفة تتكلّم !
-بل فرويد !
-وماذا يفعل هنا، أيضاً ؟
-هجوم القلق ! علاقة الغريزة باللاّشعور... إيروسية!
-وكان قد أطلق على المرأة اسم "القارة السوداء"...
-الله!
-امتصاص كامل.
-امتصاص ماذا يا...
-لا تذهبي بعيداً؛ قصدتُ امتصاص الألوان والأضواء.
-أجئتَ من أجلي أم من أجلها ؟
-اللون الأسود قد يطابق أو يناقض الأبيض، لكنّه ليس ضدّه، كما يعتقد الطفل و...المرأة.
-والعنصريّ أيضاً.
-برافو! لكن لأسباب أخرى.
ربما كان كلامها صحيحاً، لأنني جئت أبحث، في راوية، عن الجديد الطارئ، وليس عمّا عرفته منها سابقاً.
فما عرفته في الماضي هو الذي يعرقلني الآن. فكيف أعود إليها - إلى الماضي - وأنا أتحرك في حضورها ؟
أيتطلّب الأمر القضاء على الذكرى أولاً؛ تلك الطبقة الخلفية في شريط مسجّل سابقاً والتي لا تكف عن تشويش الأغنية المطبوعة حديثاً ؟ متاهة أشرطة !
-أرغب في سماع صوت فيروز معك.
-أما زلت تحبها ؟
-وهل هذا سؤال ؟
-ولا تزعجك الذكرى ؟
كأنها كانت تقرأ أفكاري.
-وما هي فيروز غير الذكرى ؟
-ألا تحرك حاضرك أيضاً ؟
-هذا مؤكّد ؛ لكنْ من زاوية حركة خفية ؛ من وراء صخرة تكاد تسدّ المجرى...
-الزّمن ؟
-تعاقب الليل والنهار، الطفولة الفالتة من الكهولة، وربما العكس. صوتها الآن يحرك الخريف: "ورقو الأصفر..."
-"شهر أيلول"
-"ذكّرني فيك"
-فلم تأتِ بي وجئت بك !

تملّكنا صوتُها:

بكَرْم اللُّولو في سلَّة
مَليانة عناقيدها سود
وحبيبي مستحلي خصلة
وفِكْري أسْرِقْلُو عنقود

أبدت راوية بعض الغيرة، اكتسب وجهها صورة إلهة غيْرَى:
-أجئتَ من أجلها أيضاً ؟
-لفيروز نكهة أخرى، في أمكنة أخرى، فماذا لو كنتِ أنتِ وفيروز، سويّةً، فيها!
-معك أنتَ طبعاً!
-بين مطلق زائل وآخر يحفر زواله.
-صوتها ؟
-لغتها أيضاً.
-ولغتي؟
-لغتك هي لغتي، يا معلمتي الغَيْرَى! أما كيمياء التّحويل في اسمها فقد جاءت من صوتها الذي يريقُ زرقة المطلق على اللحظة الفالتة...صوتها الذي يأتي من رعشة الماء، وانبثاق البرعم...
-الله! وبيروت ؟
-أهديها أحلام يقظتي.
-وهل تجدي ؟
-وهل نحبّ المدن إلا فينا ؟ مع أنني عندما عدت إلى تونس "تنكّرتُ"، قد لا تكون هذه الكلمة دقيقة، فلنقلْ أنني "انشغلتُ" عن صوتها، وعن بيروت أيضاً. كلاّ، مازالت الكلمة غير مناسبة، أعتقد أنني...تهرَّبْتُ!
-لماذا؟
-الذكريات الجميلة لا تظهر، من غير ألم، إلاّ بعد اندمال الجرح.
-والآن ؟
-أحسب أنني بلغت سكينة في الداخل تجرحني في الصمت، فلا تترك للخارج أثراً عميقاً...لذلك عدت إلى فيروز ثم إلى بيروت.
-وأنا ؟
-كَرْم العنب، المتجدد من صوْتها، في ديمومة بيروت.
انهارت الحروب، أو بعضها، وظلّ صوتها متعالياً. لكنه ينزل بعمق. أهذا خريف؟ وفي الداخل أيضاً؟ لستُ في حالة حب إذاً ؟ وماذا أسمي هذا الذي أنا فيه ؟ لذّة ما بعد التّعب أم نواة الحكاية ؟ لحظات شبقة متقاطعة مع أشد اللحظات عدماً؛ ذكرى تنطبع على ذكرى. ولِمَاذا لا يكون صوت فيروز هو سطح البحيرة الناعم، يخفي كل هذا النزق ويشرعه على كل الاحتمالات؟ هي قادحة اللحظة وليست المسؤولة عن مصائرنا بعدها. ومع ذلك نذهب إليها كي نفتش عن...الدواء!
-ابنتي دانية تقول: "فيروز مْتَاعْ [تَبَعْ] بابا"؛ مرة، قفزتْ إلى حضني وقالت لي :"خبِّيني!" فقلت لها:"أرأيتِ لماذا أحب فيروز؟" وخبأتُها فعلاً !
-وأنا أيضاً خبّيني!
هجمتُ على الفرصة فتهرَّبت راوية تتغنّجُ دلالاً...

يتوالد الكلام بيننا فعلاً، ولا أكاد أفكر في نتائجه ومراميه. أقول فتُكمل هي. تجرني فأسوقها. أفكر فإذا وجهها مرآتي، وحضورها لغتي. ذلك ما يحدث للمتزوجين أيضاً، بعد طول المعاشرة والألفة؛ يفكرون فرادى وينطقون أزواجاً. يتكلم هذا، أو تلك، فترد هذه، أو ذاك: مش معقول! كنت أفكر في الموضوع نفسه!

بين شروقٍ، ونهارٍ يسكنه الليل، طفتُ في المدينة أبحث عن بيوت، وأتوقف أمام أبواب...

(3)

بين الجدّ والهزل دائماً، يبدأ صباحنا بصحو الكلام، بعد أن يغادر فراشه، من نوم البارحة. إنه جوّ احتفالي حقًّا، ماؤه الكلام وخبزه، نبيذه ورؤاه؛ وصولاً إلى النوم مرة أخرى، لكن في فراش الكلام دائماً. كيف أكسر حلقةً في هذه السلسلة، وأواجه كلّ تلك الجدّية التي تلمع بها عيناها كلما أخلَلْتُ بالموازين محاولا اقتناص ما وراء الكلام؟ عندئذ تنطق بكلمات قليلة ترافقها بضع إيماءات، تشهرها مثل عصا الدّرس أمام وجوه الهرج وصبيان الكلام... وحتى بالتسلل، متأرجحاً بالكلام، بين الجدّ والهزل، كيف أكسر عصا السيدة ؟

يبدو أنني خرجت من نضج الكلام، في داخلي، إلى تأرجح الواقع، أمام عينيَّ، بِنَسَبٍ غير متوازنة؛ فحدَثَ الانزلاق.

وما نضج في داخلي لم تكن راوية متهيئة له، حتى وإن كانت هي التي أنضجته فيَّ. حَدَثَ الانزلاق عندما نضج الكلام في داخلي فهجمتْ على جسدها القريب والمتعالي. عندئذ وجدتُني في الفراغ؛ فراغ الزجر والاندهاش ثم اللوم "مابك ؟ معقول ؟" ومتى كان ذلك معقولاً ؟ أن تنضج الفكرة في داخلك على نيران الهواجس الموغلة في قدم الدنيا، فتخالها مواكبة للواقع خارجها. أأهرب إلى الأمام...وأتورّط في كسر وقارها وإحباط رفضها، لأملأ سقوطي في الفراغ، أم أنكفئ نادماً، مرتبكاً، متظاهراً بالحضور وأنا لا أنظر إلا إلى داخلي حيث أجدني وحدي ؟ كنت وحدي معها أيضاً، حتى عندما تملَّكتني الحيرة حول اللحظة المواتية لسحب يديّ اللتين تطوقانها...يديَّ اللتين توغَّلتا في فكرة تسبق الاغتصاب من دون أن تسميه، ومن دون أن يواصل الدّماغ تغذيتها بأوامره. بعد ذلك لم تقاوم. سكتت وواجهتني بالصّمت. انكفأت على نفسها هي الأخرى. ماذا أفعل الآن ؟ تغيب في داخلها وتترك لي جسدها من دون حركة واحدة إلا تصاعد أنفاسها، من دون كلمة واحدة. أتحرّك فإذا هي جذع شجرة، أتوقّف فإذا هي ذلك الجذع نفسه من الشجرة.

كانت تلك هي الدّرجات التي انزلقت عليها متقهقرا إلى الخلف، متراجعاً من الانتصاب اللّجوج أمام جسد مغلق، إلى الانسحاب المهتزّ ببقايا رهز ووخز. كانت محارة مغلقة...وشوكها يطوق صمتها. تكورت على نفسها من دون كلام، هذه المرة، إلا هذا الذي يجيء منها أيضاً لأنها تجعلني أقوله في صمتها. لكنْ، أيّ انفعال تُخفيه إذا كان نمْلُ دؤوبُ يحركني الآن ؟ ثم سمعتها تهمس: "غلط! غلط! غلط!" وأنا هنا أشعر بالخلل أيضاً؛ خلل التوافق بين الجسد والروح، الجسد والرغبة. وأخيراً تكلمتْ لتفاجئني:

-احْك لي حكاية عن الساحرة!

-أَية حَكاية ؟ وأية ساحرة ؟

-حكاية الساحرة التي تأتي بعد العاصفة، فتسمع قلبها يدّق لأول مرة...

-وماذا تفعل ؟

-لا شيء؛ تقول فقط: كنتُ موجودة قبل اللغة والكلام.

طلبتْ مني حكاية، واسترسلت تحكيها! ثم انتابت جسمَها خضّاتُ مفاجئة،أعقبتها حازوقة متواصلة.

-سآتيك بكوب ماء. قلتُ مغادراً إلى المطبخ.

-أريد كَلمات جديدة في كأس...

وهكذا واصلتْ ضربي بالكلام.

عدنا إليه كما لو أنّ شيئاً لم يكن. وليس من عادتي أن أتجاوز، بالصّمت، ما أعتقد أنه ينبغي أن يُطرح ويُناقش، فنعتذر عن حصوله، أو نُعدِّله ونصححّه، قبل نسيانه. لكنها ظهرت، أوَ تظاهرت، بسلوك طبيعي. فهل كان ما حدث بيننا مجرد قوسين فارَغين في سياق من الكلام طويل ؟

ومع ذلك فإنها، بعد تلك الحادثة، المحاولة، لم تعد تسكت عمّا رفضه جسدها. زاد كلامها. وامتلأ رذالات وإثارةً واكتنازاً وشبقاً. وازداد حرجي وندمي لانتصاب الشبق ممزّقاً قشرة الكلام، من دون مراعاة تسلّله المعتاد بين الجدّ والهزل، وتأرجحه بين الرغبة وتصعيد المعنى.

-أنت مشتاق كثيراً إلى زوجتك، هه ؟
قالت ذلك بابتسامة ماكرة ونظرة زائغة.
-لماذا ؟
-لأنك توجهني نحو الوجهة التي تريدها...
-عرفتك قبلها.
-آنذاك لم تكن لتهجم بلا لغة.
-وأنت؟
-أنا لاَ أخترق جسداً إلى منتهاه؛ الأجساد الأخرى هي التي تخترقني...
-إذاً، فقد أخطأتُ؟
-وأين ترى خطأك ؟
-ربما كان في توقّفي عن الكلام...كان لا بدّ من التّصويب والكلام في آن...حتى يتآلف الصمت فيكِ مع الكلام، أنتِ صانعة الكلام...
-هل أدركتَ ذلك ؟
-أأشتغل بآلتين ؟
-لنْ يكون ذلك، إنْ فعلتَ، إلا كمنْ يحرك آلَتَيْهِ بنفسه...
-قلبه ولسانه ؟
-بل يده وعضوه!
-هوذا الكلام ينزلق بك أيضا...
-تماماً كما انزلق بكَ إلَى خواء الخارج.
-أنت الخارج.
-بل أنا الصورة. وقد جعلتَ مني دريئةً، لأنك تنظر إليّ وكأنك أمام مرآة.
-علَّمْتني الكلام.
-فأردتَ التهامَهُ بريشه.
-ألا تؤمنينَ بالجنس ؟
-في مكانه وزمانه...
-والرجال ؟
-يأتون إليّ.
-ثم تتخلين عنهم ؟
-قبل أن يتخلوا...
-هذه ساديَّة !
-حتى يذْكروني ببقية من حقد وحنين.
-وعلاقتك بشروق، هل...
-أعرف إلَى أين ترمي...
-بين الجدّ والهزل، من دون المصطلح المناسب...
-لا حاجة للمداورة. أنتَ حرّ في التأويل كما تشاء.
-لماذا ؟
-لأن المعنى عندي وعندها...
-أيّ معنى ؟

-ما نريده ونجده، ونحكم أننا وجدناه.

جاءت شروق ودَار حوار كامل بينهما، مرسوم على الشفاه. كانت شروق تقرأ كلام راوية من حركات شفتيها، وتردّ بوتيرة خرقاء متفاوتة:

-نعم...الليلة...نشتري كل شيء.

انسحبت شروق وخاطبتني راوية:

-سأتيك الليلة بكلّ النساء: الطويلة والقصيرة، السمراء والشقراء، الغضّة والبضّة، الغزالة والفرس، المومس والعرجاء!

-أنت تمزحين...

-بل نعدّ حفلة لاستقبالك.

-وكيف تستقبلينني بنساء لا أعرفهنّ ؟

-بل كنت تعرف نصفهنّ على الأقلّ؛ صديقات أيام زمان!

-منْ ؟

-انتظرْ وسوف ترى.

-يَالها من مفاجآت!

-لكي تواجه هشاشة ماضيك بنضج لحظتك.

-ألسْنَ متزوجات، الآن ؟

-بعضهنّ كذلك، وبعضهنّ يواجهْن هشاشة الحاضر بقوة الماضي!

(4)

هاأنذا أتابع رحلتي العكسية مع الزمن: بدأت الحفلة. جاءت زميلاتنا أيام الجامعة ورفيقاتنا أيام النضال. جاءت أرامل الحرب وأرامل السلام. والرفيقات اللائي أقْنَعْناهنّ، بعد أن غيّبت السجون أزواجهنّ أوأصحابهنّ، بحاجة أجسادهنّ إلينا لأن الجنس مثل الماء والحرية. جاءت اليائسة إلى حدّ الثورة. جاءت الفتاة التي أقنعناها بأن البكارة تتنافى والأيديولوجيا الجديدة. وجاءت سراب من دون هذا الاسم الحركي القديم عندما تخلت في آخر لحظة عن عمليَّتها الانتحارية. جاءت التي خدعتْني وخدعْتُها ولعبنا أدواراً. جاءت امرأة الكآبة والنشيج في لحظة الذروة. وتدفق مع صخبهنّ الشهداء والأحياء والتحولات والسجون والطلاق والخيانات والأحلام المحطّمة على مذبح التاريخ.

لقاء بعد أعوام كثيرة. تذكّر الماضي، نبيذ، آراء في الطقس والسياسة والحياة والحب والزواج والإنجاب. وهل حبّ الفرص الضائعة ممكن مرة أخرى. ثم روائح، أسفار، خيبات،آراء ونصائح قبل أن نأخذها معنا إلى القبر ولا يفيد منها أحد. أكل، سجائر، مكسَّرات، حلوى. علاقة الجنس بالكتابة وعلاقتها بالخيبة، وبالنشوة الأخيرة. ماذا نعارض، وماذا نكّرس، في مواجهة فوضى العالم. عملية الإنزال الفاشلة في الجنوب وانقلاب السحر على الساحر. فلسطين ومهزلة التطورات اللاحقة. مأزق العقل ومأزق الهوية. دور المخيلة في البحث عن مناطق أخرى تسكنها اللذة. خلّصونا يا جماعة نريد نكتة! تهجئة بعض الكلمات بشهية النبيذ الجيّد. فيروز والزمن الذي كان والزمن الذي يجيء...مجزرة سيدي رايس في الجزائر...

وفجأة رنّ جرس الباب.

سكت الجميع. وقالت راوية وهي تقفز لفتح الباب:

-والآن! حان وقت المفاجأة الأكبر.

التفتنا صوب المدخل. انتظرنا صامتين. انفتح الباب. وكانت المفاجأة مفاجأتين: لحظة أنثوية، يخترقها حضور ذكريّ غير متوقع.
-عزوز المرداسي هنا ! في بيروت !
-انتبه ! لا تناديني بتلك الأسماء!
-متى جئتَ ؟
-منذ أشهر. اسمعْ، إنها قضية حياة أو موت؛ لا تستخدم اسمي الصّريح هنا.
-لماذا ؟
-لي اسم حركيّ. نادني أبو شادي.
-أما زالتْ توجد أسماء حركية؟ أليس الوقت متأخراً ؟
-لا شيء يكون متأخراً عندما يكون في وقته.
-تقصد أن الأمور نسبية طبعاً. إذاً، تعرف راوية جيداً ؟
وتدخَّلتْ راوية بيننا:
-هل سُررْتَ للمفاجأة ؟
-إنها مفاَجآت...
-أردتُ أن تكون كل مفاجأة تخفي أخرى.
-أنا آخر من خرج من العلبة الصينية! قال المرداسي مازحاً.
-أتعرف؟ إنه السبب في مجيئك، قالت راوية، تعرّفت عليه فذكّرني بك. لا أعرف غيركما من تونس.
-نعم، قال المرداسي، عندما حدّثْتني عنكَ، أخبرتها بأنني أعرفك جيداً.
-لماذا أنكرتَ معرفتها لمّا سألتُك عنها في تونس ؟
-لم أكن أعرفها شخصياً، سعيت إلى ذلك فيما بعد.
-حيّرني، قالت راوية، لأنني، بعد أن تعرفت عليه، أدركتُ أنني لا أقع إلا على الطيور ذاتها!
-لأنك امرأة لاحمة! ردّ المرداسي ضاحكًا.
ابتسمت راوية وضربت على كتفه ثم سألته:
ـ أما زلت مصرًّا على احتكار الكلام في السهرة وإلقاء خطبة؟
أجاب وهو يقرص خدها مداعبًا:
ـ وهل تظنينني على هذه الدرجة من ثقل الدم؟ ليست خطبة بل طبخة!
ـ كالعادة، بدأتَ تلعب بالكلمات!
ـ أؤكد لكِ أنها طبخة مغارب مشارق!

وتواصلت السهرة... تداخلت الأصوات والآراء والنكات والمقاطعات.
-ما من سعادة، بل هناك فرح، قرّر المرداسي حاسماً النقاش.
-وما الفرق بينهما، تساءل صوت إحداهنّ من هناك.
-الفرق بينهما هو الزمن. يتعتّق الفرح فيصير سعادةً. لأن السعادة لا يُحس بها في وقتها، إنها مسألة زمن.
كانت الصامتة الوحيدة هي شروق. تلقي نظرة مواربة إلى هذه الضّيفة ونظرة إلى تلك. وتتناول شيئاً من هنا، وحبة فستق من هناك. والحقيقة أنها وضعت قطعة صوف بجانبها ولم تبدأ بحياكتها بعد.
-كلّ ما يتم في الحاضر يكون مختلطا بالنسبية، تابع عزوز المرداسي،لا بد من عنصر الزمن كي يتحول الفرح إلى سعادة.
-ألا توجد سعادة إلا في الماضي؟ تساءل صوت من هنا.

-ربما لهذا السبب لا تكون الفراديس المفقودة موجودةً إلا في الماضي. أكمل صوت من هناك.
-أين كأسي ؟
-نظرة متشائمة...
-كلّ جيل يحسد الذي قبله.
-مسألة حضارية ...
-تقرّبنا من الموت.
-لهجتكم أصعب.
-مسألة انتشار...
-لكنْ فيها نكهة لذيذة وسرعة جنونية.
-من دون حوادث اصطدام!
-جرّبتُ كل أنواع الرجال؛ ما تعلَّمْته هضمتُه.
شروق تبتسم وحدها. تتناول الإبرة والصوف.
-نعاني من الأبوَّة في كلّ المجالات.
-بسبب القابلية للبنوّة.
-كلّ لهجة يحبّها الآخر أكثر منك.
-حتى العامية في الفنّ ليست نزولاً إلى الشعب بل هي ارتقاء به.
-مسكينة ديانا !
-خلِّصونا منها ياه !
-كلّما نزلتَ إلى مستواها الأدنى اصطدمتَ بشراستها...
-ومن الزّوايا أيضاً...تلك هي السلطة.
التفتت راوية إلى ضيوفها وطلبت الصمت:
-عزّوز يطلب الكلمة ولا يريد أن يقاطعه أحد!
-خطبة رسمية أم طبخة شعبية كالعادة ؟

انتبهت الحاضرات وبدأ عزوز يتكلم فسيطر على السهرة وأثار عاصفة من الضحك "النسبي" طبعًا!
-في المشرق كما في المغرب نسكن لهجاتنا المحلية مطمئنين مع أن الأمور نسبية. تبدأ الصدمات الصغيرة المتتالية مع الزائر، في هذا الاتجاه أو ذاك، ثم تتكثف مع امتداد إقامته في بلاد مختلفة اللهجة.
أغلب الدلالات المختلف حولها منحدر من معنى عربي واحد. فمن الذي أخطأ منذ القديم في نقل المعاني الأولى من مصادرها، أو لعب دوراً في تحريفها ؟ مازلت أتخيل حاجّاً قديماً عاد من الأراضي المقدسة ببضائع معروفة وأخرى جديدة مدهشة. من بين ما أتى به الحاج العائد من مكة إلى مراكش، نوع من الخضار أو البقول غير المعروفة، جلبها معه ونسي اسمها الأول: أهي ملوخية أم بامية ؟ وراهنَ على الاسم الأول فيما هو يحمل المادة الثانية.
وهكذا ادعى ـ بعد أن خانته الذاكرة ـ أن تلك الأكواز الصغيرة ذات الزغب الشائك هي الملوخية. لذلك انتشر اسم البامية باعتبارها ملوخية في المغرب الأقصى. ومازالت الملوخية الأصلية لم تصل .
ولا يهم إن كان ذلك المسافر قادما من مكة أم من القسطنطينية، أو كان تونسيا وجاء باسم البامية على أنها قناوية. فمن أين جاء هذا الاسم الآخر للبامية ؟ بل ما معنى بامية أصلا ؟ أعرف شخصياً أن القنّاريّة (وهذه بالراء لا بالواو مثل الأولى) عندنا، وهي الأرضي شوكي عندكم، جاءت من كلمة أنقيناري اليونانية(نطق القاف جيم مصرية). وأن المعدنوس، وهو البقدونس عندكم، جاءت تسميته من اليونانية مايدانوس. لكن من الذي سيؤكد لي أن الأتراك

هم الذين نقلوا إلينا هذه التسمية مثلما فعلوا مع البقلاوة. وقبل أن نترك الأرضي شوكي أشير إلى هذا التحريف الصوتي في ترجمة الفرنسيين وأخذهم للتسمية "آرتي شو" ويشير قاموسهم إلى أن أصل الكلمة عربي.

أما الاسم الذي لا نشك في مأتاه من جغرافيتنا فهو الكسكسي في تونس، أو الكوسكوس في الجزائر، أو الكسكسو في المغرب. هذه تسمية بربرية أكيدة للطبخة المعروفة. وكان ابن خلدون في مقدمته قد ميز البربر بأنهم يحلقون الرؤوس ويلبسون البرنوس ويأكلون الكسكوس. لذلك لا نخجل مثلكم من هذه الكلمة ولا من مشتقاتها الكثيرة؛ فالكسكسي له طنجرة، وفوق الطنجرة مصفاة اسمها الكسكاس. أما المرأة صانعة الكسكسي من طحينه الأول وسميده ، فهي تقوم بفعل بربري أول: تكسكس الكسكسي وتضعه في الكسكاس.

استغرق الجميع في الضحك والمرداسي يتابع:

لا يهم ضحككم الآن. نحن معتزون بلهجتنا ونطلب منكم احترامها بعد أن فاجأتمونا بكلماتكم البريئة عندكم والمشينة عندنا. نعترف بلهجتكم وعليكم أن تعترفوا بلهجتنا وإلاّ حدثت أزمة دبلوماسية بين دولنا. وعلى فكرة؛ قبل قليل ذكرتُ "الطحين"، هذه كلمة مشينة عندنا؛ كيف أفسر لكم معناها بكلمة من عندكم والحال أن كلمتكم ستكون كلمة عادية عندنا ومشينة عندكم؛ أي أنها تعادل عمود البناية مثلا ؟ فالبناية تقوم على عرصاتها. أتعرفون نكتة "شارع العرصات سابقاً" ؟ لن أرويها الآن.بعضكم يعرفها، وعليه أن يرويها لمن لا يعرفها.

"كل بلاد وأرطالها" هذا مثل تونسي معروف. عندما جئتكم إلى الشرق أدركت أن الحُجّاج القُدامى الذين سبقوني كانوا محقين؛ فالرطل في تونس يعادل نصف الكيلوغرام، أما عندكم فيعادل 2 كيلوغرام وأحيانا أكثر. واسألوا التونسيين عن المفارقات التي حدثت لهم وهم يتبضعون في بلاد الشام!

وأعود إلى الطحين (هذه كلمة لا تضحك إلا أهل بلدي!) في كتاب القراءة الابتدائي كان لأبناء جيلي نصّ عن طحّان ومطحنة. ولأن مخاطبة الأطفال بهذه الكلمات عيب، فقد جاء في النص أن "الطّاحن سليمان كان حزينًا كئيبًا..." وعلى الرغم من استبدال الطّحّان بالطاحن فقد ضحكنا كثيراً. ولنغلق هذا الانزياح للمعاني بطرفة من إحدى دورات مهرجان قرطاج السينمائي. في افتتاح تلك الدورة العتيدة أُعْلن "أن الكلمة الآن لحسن العكروت من تونس"، فضحك أصدقاؤنا المشارقة. ولم يفهم التوانسة لماذا ضحكوا. ثم أُعلن أن "الكلمة الموالية لمحمد الطحان من مصر"، فضحك التوانسة ولم يدرك المشارقة لماذا ضحكوا!

كلمة أخيرة ـ أرجو أن تكون كذلك ـ عن الكسكسي: في إعلاناتنا التلفزيونية إعلان مخصص للكسكسي، يثير ضحكات ضيوفنا العرب. وبما أن قناتنا فضائية، فلا شك أن بعضكم شاهد تلك الدعاية واستمع إليها. تظهر على الشاشة امرأة عصرية وفي يدها كيس شفاف مملوء بنوع من الكسكسى. تبتسم لنا ولكم، وتقول باعتبارها امرأة عصرية : "أنا أمي ما علّمتنيش انكَسْكس، فأشتريه جاهزا من نوع كذا..."

وحدها شروق كانت تبدو مرتبكة، غير مشاركة فيَ الضحك، ومنكبّة على كبَّة الصّوف، فيما عزوز المرداسي يتابع:

- ولننتقلْ الآن إلى بعض نوادر الفلسطينيين مع اللهجة التونسية عندما أقاموا بيننا بعد الخروج من بيروت. لقد اكتشف البعض، من أصحاب الدم الخفيف، أن كلمتيْ "بَرْشة" و "ياسر" لهما المعنى نفسه ـ ولكن وفق السياق ـ في اللهجة التونسية (بَرْشَه و ياسرْ تعنيان: كثيراً) فأراد أحدهم أن يُثْريَ لهجتَنا بكلمة "أكثر"، فقال "أبرش" وهذا لا يجوز! وذهب غيره إلى أن اسمَ الرئيس"ياسر"عرفات، باللهجة التونسية، يمكن أن يكون "برشة عرفات" وكان هناك من يعتقد أنه يسكن في منطقة اسمها برج الصدرية (سوتيان) والحال أن اسمها من السّدر لا من الصدر. وبالنظر إلى أننا نسمي "البيضة" (بيضة الدجاجة وغيرها) "عظمة" وجمعها "عْظَمْ " فقد ذهب أحد الأصدقاء الفلسطينيين إلى مطعم تونسي فلم يعجبه الأكل لأنه حارّ. وعندما اقترح عليه صاحب المطعم أن يأتيه بعظمة أو عظمْ في صحن، احتج الفلسطيني قائلاً:"وهل أنا كلب حتى تأتيني بالعظم ؟"

لا أدري لماذا سمَّى أجدادنا البيضة عظمة. لعلهم رأوها عظْماً أبيض يخرج من اللّحم. وأكثر من ذلك سموا لنا السمك حوتاً. وتصوروا فلسطينياً آخر ينتظر محدق العينين أن يأتيه النادل "بحوت كامل" فيفاجأ بسمكتين صغيرتين.

وسوف يفاجأ الزائر العربي بكلمات أخرى عندنا: فالبيت هو الغرفة . والدار فيها عدة بيوت. والبندق هو الصنوبر. وعندما يقول التونسي أو التونسية لذلك الضيف المصري "هز" فليس عليه أن يغضب من الاستهانة به، أو دعوته إلى الرقص، فمعنى الكلمة هو "احمل أو تناولْ".وإذا قالت إحداهن "أنا أحب الخلاعة" فلا تظنوا بها الظنون. فهي تحب "المصيف " على شاطئ البحر مثلاً. وثمة كلمة أخرى في منتهى الرذالة عندكم وهي كلمة بريئة عندنا؛ قالت الفتاة التونسية لصديقي اللبناني: "مالك تتمنيك عليّ ؟ " فذُهل! والحقيقة أنها لم تقل له شيئاً آخر غير " لماذا تمزح معي ؟" أو" لماذا تسخر مني؟" حسب السياق ودرجة المزح.

وأذكر أن الكاتبة الفلسطينية ليانة بدر اشتكت من وعود التوانسة وخاصة أصحاب الورشات والتجار. يقولون لها "توًّا نجيء" فتنتظر الميكانيكي أو السبّاك، ولا يأتي. أما صاحب الموعد فلم يعدها بالحضور توًّا، كما قد يُفهم باللغة الفصحى. فكلمة "توًّا "(بلا تنوين) في الدارجة التونسية تتغير حسب السياق وقد تعني "سوف" إذا جاءت قبل الفعل، وتعني "الآن" إذا جاءت بعد الفعل. وشتان بين توًّا وسوف. وكان صديق مصري قد غضب من صديقه التونسي لأنه "سيخلّص عليه" أي يدفع عنه ثمن القهوة مثلا.

أما على صعيد الفصحى فهناك طرائف أخرى تأتي بسبب الترجمة الحرفية عن الفرنسية حيناً، أو تعود إلى الاشتقاق حيناً آخر. ويمكن أن يندهش وفد برلماني عربي من "حملة تحسيسية" في تونس، أي حملة توعية. وعندما تمر في الشوارع ستقرأ "ممنوع الانتصاب" أي وضع البسطات للبيع كما تقولون هنا.

وثمة مفارقات وطرائف أخرى كثيرة، ندعوكم إلى زيارتنا ـ إن لم تفعلوا بعد ـ كي تكتشفوها بأنفسكم.

عبّ عزوز المرداسي كأسه دفعة واحدة وتابع قائلا:

أما الآن فسأتحدث عن الوجه الآخر للطبخة، وعما تفعل بنا لهجاتكم عندما نكون نحن الزائرين هذه المرة، فتصدمنا كلماتكم البذيئة بينما تتعايشون معها مطمئنين، لا مبالين بصدماتنا.

أنا الذي سافرت كثيراً، أستطيع القول إن ما يجمع بيننا أو يفرق، يمكن أن يُلخَّص في هذه الألقاب الثلاثة: ففي سوريا يوجد من اسمه "محمود دكّ الباب" وفي مصر نعرف "حسن فتح الباب" أما في تونس فهناك "الحبيب جاء وحده "!

وعلى ذكر الأسماء والألقاب، أنتم تكثرون من الألقاب التي هي أسماء حيوانات عندنا بعد تحريف الدلالة الأصلية كما يجري في لهجتنا العامية.أذكر الروائي قمر الزمان علوش في سوريا. وبمناسبة عيد الأضحى، تذبح كل عائلة تونسية "علوشْ". وعندكم في لبنان صحفية ذات لقب طريف: ناعورة السردوك. الناعورة عندكم هي الناعورة عندنا، أما السردوك عندنا فهو الديك. وإذا كانت توجد عندكم عائلة "البسّ " فإن ما يرادفها عندنا هو "القطوس"، اسم القط بالعامية وهو من اللاتينية كاتوس! وقد قرأت مؤخراً أن أستاذاً لَلنقد في الأردن قام بنشاط ثقافي نقلته إحدى الصحف العربية ويدعى بسام القطوس. وما زلت في الاختلافات البسيطة، لم أصل بعد إلى ما يصدمنا أخلاقياً في لهجتكم. أولى صدماتنا كانت مع كلمة "بص" (شوف) المصرية. فالثانية عادية عندنا، أما الأولى فيكمن عيبها في أنك تقول للشخص "اضرطْ!" باللهجة التونسية.

مرَّ زمن واعتدنا. ثم بدأت مفاجآت أخرى سواء عندما انتقلنا وزرناكم أو العكس. وزادت الأفلام والمسلسلات طين الحياء بلة! فعلاوة على ما تتحفوننا به من طحين وطحّان وطحينة، أخجلتم المرأة في المغرب الأقصى بقولكم " افتحي الطبون!" أنتم قصدتم صندوق السيارة، أما هي فقد أذهلها وأخرسها نطقكم بما لا يُسمَّى من أعضائها! أما الشاعرة السورية مرام المصري التي طبعت ديواناً لها في تونس بعنوان "كرزة حمراء..." فقد يكون نجاح ديوانها عائداً جزئيا إلى معنى الكرزة بالدارجة التونسية (الخصية!) وعيب عليكم أن تقولوا خبز "السمون" في تونس، فقد يكون هو ما يملأ طبون المغربية! كذلك ارتبكت المذيعة السورية وهي تقرأ خبراً وارداً من الجزائر. المذيعة وجدت اسم تيزي وزّو، فاحمرّت خجلاً. كان الجزء الأول من الاسم في آخر السطر، وكلمة وزّو في بداية سطر جديد، فالتصقت بها التصاق الغريق بقشة: وزّززو.

في سوريا، أنا شخصياً أضحك كثيراً، إذْ يكفي أن يتوقف بي الباص في جرمانة، وهي البطّة عندنا. والأسوأ أن يتوقف في ضاحية قريبة من دمشق اسمها "عين ترما!" عين ماذا ؟ (الطيز!) فما بالك إذا أكلتُ البصطرما أيضاً؛ فهذه تجمع بين الشيء ومصدره. وكنتُ في منتهى التلقائية وأنا أخاطب القطة قائلاً "بش بش" لكي تأتي، و "كس كس " كي تذهب. أمَا كفاكم أنكم دعوتم علينا، وما زلتم، بالجمر والنار، في قولكم المهذب "الله يعطيكم العافية!" العافية عندكم هي النار عندنا، ولعلها متأتية من كون النار استخدمت لاستجلاب العافية و"آخر الطب الكيّ" كما قالت العرب، أي أن اسم النار استبدل عندنا بوظيفة من وظائفها: العافية.

وكثيراً ما نلجأ، عندنا، إلى التأنيث بدل التذكير؛ فالعروس هو العريس مقابل العروسة. وتستطيع لدى أهل الشمال أن تؤنث المذكر المخاطب بقولك "أنت" بينما يغضب أهل الجنوب من ذلك. والمغاربة يؤنثون كثيراً في مخاطبة المذكر "سامحيني يا أحمد " مثلاً. وقد يسألكَ مغربي أو مغربية: أكلت ؟ لعبت؟ أما نحن في تونس فنذكّر المرأة إذا كنا نخاطبها، ونؤنثها إذا كانت غائبة؛ كأن نخاطبها "يا سعاد، البسْ واخرجْ" وقولنا في غيابها: " سعاد لبستْ وخرجت" إلى أين؟ لستُ أدري! وأدري أن أصدقاءنا العرب يضحكون لقولنا "فلان عرَّسْ وفلانة عرَّستْ " الملاعين! نحن نقصد "فلان تزوج وفلانة تزوجتْ " وهم يستمعون إلينا جاعلين حرف السين صاداً.

التفت عزوز المرداسي نحوي وكأنه يُشْهِدُني عل ما يقول:

- يالها من لغة ضاد! الضاد عندنا دائماً ظاء في النطق. لذلك تقع لنا مشاكل في كتابتها منذ الابتدائية. وعرفتُ فيما بعد أنها مشكلة يعاني منها أهل العراق والخليج عموماً. وهؤلاء يورطوننا مثلكم في قولهم سمون وطبون. في حين نستطيع القول بأريحية لا يشاركوننا فيها "زنبور" عن اليعسوب، شريطة عدم حذف النون. أما العراقيون فيحتجون.

ويمكن للممرضة عندنا أن تدقّك إبرة في "المخروقة" أي الورك. فلماذا تضحكون؟ ولعل المخروقة أبعد أو أقرب ما تكون عن ومن المخارق، حلوياتنا الأشهر في شهر رمضان. وترافقها دائماً الزلابية. ولنا حلويات أخرى ذات أسماء مضحكة كما توجد عندكم. لدينا وذْنين (أذنين) القاضي مثلاً. وعندنا ما نأكله ونتمتع به مثل " أمك حورية "، و"بوليس مكتّف" و "مدفونة". كما أذهلني فَي بلاد الشام ذلك الشبق في مزج حلاوة النساء بعسل الحلويات: زنود الست، غزل البنات، أمّ علي، أصابع زينب الخ. كما تتمتعون بأكلات مثل حرّاق إصبعه، جز مز، والشاكرية التي نستغرب مزجكم فيها بين اللحم واللبن، كما قد تستغربون من المغاربة جمعهم بين الحلو والمالح في أشهى طبق هو"البسطيلا". أما أن يبلغ الأكل مستوى"المنسف" فهذا إرهاب للضيف قبل معدته.

وسأذكر لكم الآن كيف احتلْنا على تسمية شامية لنوع من الحلويات؛ لا شك أن أجدادنا عندما سافروا إلى بلاد الشام جلبوا الحلويات الشامية، ومنها "الحلاوة الطحينية" وصرتم تعرفون حالياً أن الطحين ومشتقاته عيب. فماذا سمّى أجدادنا القادمون من الشام أو من الأندلس تلك الحلاوة الطحينية ؟ إنها "الحلوى الشامية". والآن يمكن أن تقتصر على كلمة"شامية" فهي تعبر عن الحلوى نفسها. وتستطيع القول مثلاً: "اشتريت شامية وأكلتها وحدي!"

رفض المرداسي أية مقاطعة لكلامه وأضاف:

-حكايتنا مع الشامية لا تنتهي عند هذا الحد. فنحن نطلق على القميص اسم "سورية": اشتريت سورية، لبست سورية! وكل ما هو أعجمي ـ كما ترجم أجدادنا ـ يقابل كلمة "عربي". لكننا نقول "سوري" بدل أعجمي. وبهذا المعنى فالبرنس والجبة لباس عربي، والسورية والبنطلون لباس سوري. هل تكون الكلمة متأتية من "سواريه" الفرنسية ؟ كلاّ! يقال إن المترجمين الأوائل الذين اصطحبهم الأوربيون من بلاد الشام كانوا من المسيحيين المجيدين للغة الفرنسية. وكان هؤلاء المترجمون يلبسون الأزياء الأوروبية. فكان السوريون هم الأقرب إلى عرب شمال إفريقيا، ولباسهم "السوري" هو لباس إفرنجي في الحقيقة، تماما كما حُكيَ لي أن الصينيين كانوا أول من دخل إلى اليمن الحديث من الأجانب وساعدوا الثورة اليمنية في تعبيد الطرقات وإنشاء المؤسسات، لذلك صار اليمنيون يعتبرون كل أجنبي صينياً، كما نطلق على كل ما أدخله الفرنسيون صفة سوري. وهكذا فإن أي تونسي يستطيع أن يشتري كل شهر، أو شهرين، أو

أكثر، "سورية" وقد يستعملها أخوه الأصغر بعده، وعندما تتمزق أو تبلى يشتري سورية أخرى، وكثيراً ما يأكل الشامية وخاصة في شهر رمضان، فلا تحسدوه!

ظلت شروق صامتة؛ تلتفت هنا وهناك أحياناً، تبتسم أو تعبس، وتتابع نسج الصّوف.

ذهبتُ إلى الحمّام فالتحق بي عزوز بعد لحظات. سألته مستغرباً:

-سافرتَ إلى ألمانيا في حدود علمي ؟

-والآن، أنا في بيروت.

-وهل جئت لتستقرّ، كما تدّعي دائماً ؟

-يكفي تغيير المكان من أجل اكتشافات جديدة للفرح.

-الفرح الذي يصير سعادة فيما بعد ؟

-لِمَ لا ؟ وما هي أخبار البلاد؟ أما زلتم...

-تَبدو متحرّراً من كلّ قيد هنا.

-هذا وهم؛ نخسر قيود الهناك ونلتزم بقيود الهُنا.

-وقيود النساء؟

-أصرّتْ راوية على مجيئك، كانت ستزورك!

أردت أن أسأله عن طبيعة العلاقة بينهما. لكنّني حِرتُ في إيجاد صياغة يخرج بها السؤال من دون فجاجة.

وكأنه قرأ حيرتي:

-راوية ليست كما تتصورها.

-ماذا تعني؟

-لا شيء. جاءتك بكل هؤلاء النساء كي تتخلص منك.

-كيف ؟

-تغمرك بالذكرى لكي لا تعيش الواقع وتعيش الحنين...وتؤخر صورتها أمامك بتعدد صور النساء الحاضرات...

-من الأفضل أن أغادر بيتها إلى فندق إذاً...

-كلا، لا أقصد ذلك، لا أقصد أنها تريد التخلّص منك، تريد منك أن تنساها...

-لم أفهم.

-هي تقصد الكلام والصورة.

-كلامها وصورتها؟

-بل كلامك التّابع لها، وصورتك المنعكسة فيها.

-وأنت؟ كيف تتعامل معها ؟

-أنا لا أحترف الكلام، أبحث عن اللذة والفرح، في الأكل كما في الجنس، في السياسة كما في السفر...حتى في الحرب لا يستطيع العقل أن يحلّ محل الغريزة. أنا حاولت ولم أنجح.

واقترب منّي أكثر ليسألني هامساً:

-هل أعجبتك واحدة ؟

-كلهنّ !

-انتبهْ! لا تعدْ إلى الذاكرة مرّة أخرى، كما فعلتَ مع راوية، لا تعدْ إلى من أفلتنْ منك سابقاً.

-كلهنّ أفلتن.

-إذاً لم تبقَ أمامك إلا شروق! قال ضاحكاً.

في نهاية السهرة غادرتنا الضيفات كلهنّ. وظلّ عزوز المرداسي الذي لاحظ صمتي فبادرني بالكلام :

-مَرَّتْ ستّ سنوات على عودتك النهائية إلى البلاد، كيف وجدتها بعد عشرين عاماً من الغياب؟
-بل بعد ستة وعشرين عاماً...
-لماذا أضفت ستة ؟
-أربط ما يأتي بما فات.
-كأنك أخطأت جيوب الفرحة...
سكتُّ، فأضاف متسائلاً:
-أم تراك اقتنعت، الليلة، بنظريّتي حول فرح اليوم الذي يشكّل سعادة الغد ؟
كان يخربش على منديل ورقيّ. اقتربت منه واختلست النظر. فقرأت س+ح= فرح.سألته:
-أأنت عاشق ؟ مَنْ ؟
أجاب وهو يمرّ بقلمه المقلوب على تلك الرموز:
-وهل وجدت حرفاً يدل على اسمي ؟
سكتُّ فتناول منديلاً آخر. طواه ثم كتب: لكن ف + م = س.
سألته ضاحكاً:
-ما هذه الألغاز يا عزوز ؟
-ما من سعادة، أجاب، ولا تنسَ أن اسمي الآن أبو شادي.
-لماذا ؟
-راجع المنديل الأول.
-لم استنتج شيئاً، قلتُ.
-أردتُ أن أبعث فيك الحيرة، لا غير!
عادت راوية يسبقها صوتها:
-طبعاً عاد أبو شادي إلى لعبة الحروف على المناديل...
سألتُها :
-أتفهمين ما يخربش ؟
-الأمور عنده نسبية دائماً. ومع أنه لا يكرّر اللعبة نفسها مرّتين فقد فعلها هذه المرّة .
أدركتُ منذ الدقائق الأولى لبقائنا، نحن الثلاثة، في قاعة الجلوس، أنه يتوجب عليَّ الاستئذان والالتحاق بغرفتي. وكنت أحسب أنني الأصل وعزوز هو الطارئ.
لقد بدأ بينهما حوار ثنائي صامت. يتخلّله كلام عيون، وابتسامات مكتومة، ومساحات صمت ثقيل، لم تجد راوية بدّاً من ردمه إلا بتكرار ما قالته:
-أبو شادي يخربش دائماً، حتى عندما يدخل غرفة الحمّام...
قمت وتركتهما.
كانت غرفة شروق مضاءة ...

(5)

ولِمَ جئتَ إذاً ؟ تقول لي. ولِمَ نادَيْتني لأجيء، أقول لها. والجسد ؟ أبداً، أبداً، لن يكون حواراً بين غزالة خائفة، وصياد لا يمتلك من أصنافَ السلاح سوى الكلام.
كلام لا يجْني شيئاً.
كلام لا يُرسِلُ للقطف بمقدار ما يرتدُّ فرحاً بصورته في المرآة: شهريار القاتل ـ بلا قتل سوى غريزة منكفئة في طريقها إلى الردع ـ متأمّلا تَوْبَتَهُ فيَ حكايات شهرزاد. نرسيس منعكساً في ماء النرجس، يتلوّى كي تنتج صورته المعنى،

ويرتدّ المعنى مالحاً ظَمئاً يكرع من صدَى الصورة صدىً للذات. والآلهة الغيرى تصنع من انفعالاتها عِبْرةً للكلمة، ثم تخونها.تسدّد إلى القلب، فتمزّق الأحاسيس ولا توفّر الفكرة.

والجسد ؟

أبداً، أبداً لن يكون سوى سَعْيٍ دؤوب ومثابرة وتعهد. أما الحبّ...

المرداسي هناك، الآن.

وأنا، هنا.

طائري جاء ينهش صورتي. إنهما في غرفتهما الآن. وأنا هنا. كأنني لا أحقد عليه، وأكرهها. كأنني لا أريد رؤيتهما، بل أريد. ضحك، آهات، فحيح. تضحك، تصيح. خطوات في الممرّ...أحدِّث نفسي بما لن أقوله لأحد. أتذكر كل حب ميت. رنين أجراس، لكن في الماء. لاشك أنه يبحث فيها عمّا يميّزها وقت المواقعة. ذلك ما يبحث عنه في كل واحدة. ألم يقل لي إنّ النساء مثل المدن، أهم ما فيهنّ لحظة النزول والدهشة وليس الإقامة. وهنّ مثل المدن أيضاً، فلا يؤخذنّ أخذاً إلا من نقاط ضعفهنّ السرية ؟

كلّ إقامة عمىً وعماء.

لكنها تجرّه الآن. تجرّه كي يحبّها. خطوات في الممرّ. ثم تتركه. سوف تترصّده وتجمع في السرّ ما يبعدها عنه بعد أن تتركه مقهوراً. سوف تعلو به إلى لحظة قصوى ثم تتركه معلّقاً، وتقول له: ماذا ستفعل الآن؟ أنا بلغت ما أريد! سوف يبقى قضيبه منتصباً متوتّراً يقوده إلى دريئة متحرّكة في فضاء فضفاض لا منفذ فيه ولا خُزق.سوف تعلن انتهاء المعركة لأنه استجاب إلى ما تريد ولامسها أكثر ممّا يجب. أنضجها إلى ما قبل احتراقه بآهة واحدة. سوف تشعر بالتعالي مرّتين وهي فوقه، تتركه منتعظاً مغتَصَباً قريباً من الموت واقفاً في الحياة، محوِّرُه رمحُه وجسده مضطرب. قد يكابر، أو يترجّاها. قد ينسحب أو ينتظرها مثل شحاذ. فيستمع إلى كلامها يأتيه مشحوناً بتحقّق الرّغبة...خطوات في الممرّ، ينبغي أن أتأكد بنفسي.

من ثقب بابي رأيتها ترى. تخطو بحذر. تطلّ من ثقب الباب. تلتفت مرتبكة. تراقب غرفتي. تعود إلى ثقب الباب. بقية من أضواء الليل تجعلني أرى أنها ترى. لماذا تتلصّص عليهما شروق ؟

أشعر أنني داخل فقاعة من الصمت. تسكنني أحاسيس ورؤى...وكلام. أرى موشور الضوء يتوزع على العتمة. كلّ شيء يتحرّك ويتمايل. يظهر ويختفي. تلمع الألوان داكنة، والحركات صامتة. الحفيف يتسارع. الفراش يتوجع ثم انطلاق آهة أخيرة، طويلة في مائها، مثل موجة. تلاشى الفحيح. وركضت الخطى في صمتها كما قطعة ليل في الليل.

أتوغّل في عكس الاتجاهات. أبدأ بالزمن. أُولَدُ الآن وأنطلق بعكس تدفّقه. أجد أخطائي أمامي؛ أخطائي التي كانت في الماضي. أسير نحوها مخترقاً تدفّق الزمن. أتعرّف على أعدائي. أنقضّ على الفرص الضائعة. أتعهّدها وأردم ثغراتها. لن أطيل الإقامة هنا، تلافياً للنهاية الموحشة...أرتق الأمس بوعي اليوم. هشاشة الماضي بنضج اللحظة...أتوغل في الزمن. أصل إلى طفل ينام، إلى صمت، إلى وجود ليس له وجود. "رأيتك نائماً كالجنين" سوف تقول لي صباح الغد. لكنني أحلم الآن.امْتَصَّني ليل بلا حافات. ليل بيروت، بيوتي، بيوت الآخرين. أبْوابي. فاتنتي تجلس أخيراً في الصالون. قنبلة فراغية. القبو. المصادفات التي لم أمت فيها، من أجل عودة تليها عودة. لَم أجدْكَ حاولتُ من الشباك بلا جدوى عدت مكسوفة. وأولئك الذين ماتوا، أو توزعوا على أطلس المعلّمة. مخيّمات كأنها آثار قرطاج بعد ضربات روما. ثم أكبر في الحلم. لم أعد طفلا ينام. أعود من رحلتي محمّلاً بأخطاء جديدة، لا بد من رحلة أخرى. عبثاً: فالرحلة الوحيدة التي لا تواجهنا فيها أخطاؤنا هي تلك التي لا نذهب إليها، أو تلك التي لا نعود منها أبداً.

بدأ كلّ شيء يتحرك مائعاً متمايلاً. الأرق يحرث ليلي بصُوَره : صُوَري.

آتي بقطعة من الليل إلى غرفتي. عارية تحت قميص النوم. قَارَة سوداء تمتصّ أشعتي. ظلمات على الغمر وروح على المياه. وسمَّتْني النَّهار وسَمَّيْتُها الظلمات. فيها شعاعُ نجمة والتماع غيمة. أرى. أتقاسم اللعنة مع مَنْ شارك في الاطّلاع على السرّ، بلغة، هي لغة عرّاف في مقبرة. واقفة ولا تفعل شيئاً. أُنصتُ إلى أنفاسها، إلى لمعة عينيها، إلى

مادّة جسدها الذي يريد أن يتشكل. تخونه الحركة فيتأنىَّ ثم يزحف بحفيفٍ وَبَريّ في العتمة. لا أنهض ولا أبادر. فتتلوّى في يقظتي ولا تجيء. أحاول الفصل ما بينهما. أسمّيهما الليل والنهار. فمنْ أكون، أنا الذي يُسَمِّي ولا يكون، وكأنه يتعالى، مستقراً ما بين الواقع والحلم، مقبلاً بما يتلاشى إلى ما يحدث. كأنني في موقع علْويّ للمراقبة الآن: بين الصمت والكلام أتسرب عبر الحدّ الفاصل بين الليل والشروق، مدّعياً تكوير جسد بين يديّ، في حاضرٍ هو ماضٍ...

يفاجئني شعاع أول في المرآة، ثم دويّ. فأنهض على أصوات طلقات طائشة يبدأ بها فجر بيروت...

(6)

في الصباح عدنا كما كنا: أنا وراوية وشروق. اختفى عزوز المرداسي في ساعة مبكرة. "يبدو أنه ذهب في مهمة عسكرية" قالت راوية. لكنّه وعدها بالعودة مساء. لابدّ أن يعود حيّاً، هادم اللذّات. لا صديق حتى قبل الطريق، قال لي، أنا الذي وجدته في عشرين إقامة ولم أجده في أي طريق. سألتني راوية:

-ما رأيك في رحلةٍ هذا اليوم ؟

-إلى أين ؟

-إلى مزرعتي في الجنوب.

-أشعر بالإرهاق.

-لماذا ؟ هل تعبتَ من السهرة ؟

-لا، بل من الأرق.

-إذاً، فقد تكلمتَ وحدك!

-لم أتكلم...مزّقني الوقت.

-تقصد: هَاجَمَتْكَ الذكريات ؟

شروق تتحرك ما بين الغرف والمطبخ والحمّام، في صمت. لا تُسمع منها إلا قرقعة خفيفة هناك أو حفيف ثياب هنا. قلتُ معلقاً على نشاطها:

-لم تكن أرقَة مثلي!

-لو حدث لَهَا ذلك لضمّت أرقها...

-يا صباح اللغة! ها إنكِ تعودين!

-ومتى غبتُ ؟

-غيابك خلف عينيك.

-لا غياب إلا وله حضور. وقد ابتعدْتَ بي عن فكرتي الأولى.

-وعَمَّ كانت فكرتك الأولى ؟

-عن أرقٍ لم ينضمَّ إلى أرقٍ...

-والمعنى ؟

-يتحرك في الحمّام...

-شروق؟

-ها إنك تحطّ على الأرض أخيراً.

كانت حركات يديها وابتسامتها الغامزة قبل عينيها، تواكب المعنى الطالع إيحاء من كلماتها. ثم عودة إلى الكلام الأرضي الواضح:

-لماذا ترفض الرحلة إلى الجنوب ؟

-لك موعد معه هناك ؟
-منْ ؟
-أبو شادي (رنّ الاسم غريباً في أذني)
-هل بلغتْ بك الغيرة هذا الحدّ ؟
-وأنت بم تشعرين ؟ بالاكتمال ؟
-كل طَبقة جديدة نحو الاكتمال زيف، صورة أخرى تبعدنا عن الأصل...وصولاً إلى الموت.
-مع كل هذه الروح الاستغلالية ؟
-لا أستغل أحداً، الآخرون هم الذين يستغلون أنفسهم، من خلالي.
-ولِمَ كل هذا التعقيد ؟
-أنتَ تدرك جيّداً أنها مسألة فهم وتواصل وتعدّد قراءات...
-هنا المعضلة!
-أية معضلة ؟
-تحسبين أنّ هناك تواصلاً، وأنت تفلتين من حال إلى حال، ومن صورة إلى أخرى...
-مساهمة مني في خلق الوهم.
رنَّ جرس الهاتف. ذهبت راوية لتردّ ثم عادت :
-تصوّرْ! يريدون طبيبة بيطريّة اسمها راوية عمران. النّمرة غلط!
-لذلك تريدين الذهاب إلى المزرعة.
-وأنتَ تمزح عائداً إلى الأرض!
-وهل كنتُ في السماء ؟
-كنتَ توسّط الوهم إلى الوهم.
متأخّراً جداً، انتبهت إلى شيء صغير ينقصها. ذكّرتني به رجرجة صدرها:
-أين ذلك الصندوق الصغير على صدرك ؟
-الآن تسأل عنه ؟ لقد انفضحت الأسرار كلّها .
-لن أذهب إلى المزرعة .
-لماذا ؟
-لم أدخل في رتابة مدينتكم بعد. وثمة أماكن أخرى أريد السير فيها وحدي.
-ملاحقاً الذكرى ؟
-ربمّا...
-لن تجُدِيَكَ الذكرى.
-أليست صوراً ؟
-دَعْها كذلك ولا تحطّمها بالحضور.
-لأني حضرت إليك ؟
-لماذا هذا الشعور بالذنب ؟
جاءت شروق بالقهوة. من الواضح الآن أن موقعها بين الصّديقة والخادم. وذلك باتّفاق ضمني يمحوه الكلام وتؤكده الممارسة. انصرفتُ إلى التدخين وشرْب القهوة. شروق صامتة وراوية تتزيّن في مرآة صغيرة وتترشف جرعات متقطعة من فنجانها. أيقظتْني من شرودي:
-تعرف ؟ أحياناً لا أشعر بوجود الآخرين حتّى وهم بجانبي. لا شك أنني لست طبيعية! ما رأيك؟ أشعر أنّ العالم مجرّد حلم يجري في رأسي.

-لذلك يتحول الآخرون إلى أشباح وتماثيل ووسائل أخرى معقدة! قلت ساخراً.
-لست أدري. أحيانا أصير أنا التمثال، ولا يحركني إلا الآخرون!
ملتُ قليلاً برأسي حتى لا تقرأ شروق حركة شفتيّ :
-ولذلك أيضاً فضّلت صمتَ شروق وحضورها الشبحيّ على غيرها من بني البشر؟
-لذلك أيضاً تراني جَسداً ولا أراك إلا شبحاً! أتعرف لماذا ؟
وأكملتْ وحدها:
-لأني أراك في مرآتي، الآن!
ثم انطلقت في ضحكة هستيرية لم يوقفها، على مراحل، سوى رنين جرس الباب.
عاد المرداسي من مهمته الغامضة في الجنوب. وتحدّث في العموميات وعن صعوبة التفاهم واختلاف وجهات النظر. لكنه بدا لي أكثر مرحاً وتلقائية في التّعامل مع المكان وأهله. قبَّل راوية على خدها، وداعب شروق مطبْطباً على كتفها، ثم احتضنها بذراع واحدة،وهصرها ممازحاً كما لو كانت طفلة.
لَم تعد راوية إلى الكلام عن زيارة المزرعة. كنتُ سأوافق على مثل هذه الزيارة لو كنت أعيش في ظروف رتيبة. فالمزرعة بالنسبة إليّ والريف بوجه عام، يوقظان الإحساس من رتابة الأيام في المدينة، وربما كان العكس صحيحاً أيضاً. إلا أنني أعيش هذه الأيام خارج رتابة أيامي كلها.
اعتذرتْ راوية لأنها مشغولة اليوم ومضطرة للخروج. لم تنسّق خروجها أو لقاءها مع المرداسي، على الأقل في حضوري. ومع ذلك كان من الواضح أنّ هناك ترتيباً مّا، بينهما، كشفه صمتهما المشترك.

(7)

يمكن الحوار مع شروق بطريقتين، غير الإيماءات والصمت: قراءة حركة الشفتين، وهي طريقة صعبة، تتطلب من مخاطبها أن يرسم بشفتيه في الهواء، كلّ الكلمات. ويركز على مخارج الحروف بشكل واضح ـ وبلغة أو لهجة تعرفها ـ مع تغليب التهجئة، وتحريك الفكين بشكل مصطنع، كَمَنْ يملُي كلماته متمهلاً وبصوت أقرب إلى الرسم بالشفتين منه إلى النطق المعتاد بهما. ولا حاجة للصوت على أية حال.
وهذه الطريقة يخرج منها الفكان، في نهاية الحديث، مُرْهَقَيْنْ، وربما معلَّقين بين الانطباق والرغبة في مواصلة التحرّك الآلي حتّى وأنتَ وحدك! وبما أنها لا تسمع فهي لا تراقب درجات صوتها. لذلك يخرج كلامها بنبرات متواصلة تعلو وتنخفض في نشاز مزعج.
أمّا الطريقة الثانية فقد أسعفتني بها هي؛ عندما جلست قبالتي، فطلبتُ منها أن تقترب مني للدردشة. نظرتْ إلى اليمين والى اليسار ثم أسرعت نحو مائدة الهاتف وتناولت من درجها دفتراً وقلماً جافّاً. كتبتْ (1+ 1=...) ثم انتزعت الورقة وقدّمتْها لي مع القلم. كتبتُ "ثالثهما الشيطان!" وناولتها الورقة. ابتسمتْ وكتبتْ:(1+ 1+1= ؟) أجبتُ "ممارسة فعليّة!" ثم سألتني: "وأبو شادي؟" أجبتُ "بدأت النميمة! إنه يسرق اللذة التي توشك على الاكتمال!" وأضفت اسألها :"قطعة الصوف التي تنسجينها متى تكتمل؟" كتبتْ "هل بدأتَ تشعر بالبرد ؟" ، "ماذا ستصنعين منها ؟ " ، "لست أدري!"
هكذا تورّطتُ معها في نسيج الصمت ورسم الكلام الخفيّ...ثم خرجنا إلى كورنيش المنارة. تمشّينا قليلاً وجلسنا في مقهى بَحْريّة من دون أن يفارقنا القلم والدفتر.
كتبتُ "أنا مشْ سودَا بس الليل سوّدْني بجناحو...هل تحبين فيروز؟" أجابت "أحبها من شفتيها مباشرةً "، "هل نواصل النميمة؟ " ،"نعم !" ، " من هي شروق؟ " ، " تؤخذ أخذاً عندما لا تنقاد، تسلب سلباً وتغتصب" ، "لماذا ؟" ، " مرقوا الخيالة ع الخيل تركوني وراحوا " ، "وكنت صغيرة ؟" ،" أحب راوية لأنها انتشلتني"، ألا تشعرين بغرورها وتعاليها ؟" ، "تلبّي ما تعتبره حاجة الآخرين فيها" ، "ماذا يفعل من يجد حاجته فيكِ؟ "، "يكون قد تأخّر!" ،" لماذا ؟"

توقفتْ عن الكتابة. التفتت صوب البحر. تنهّدتْ ثم تناولت الدفتر: "حيوانات البحر غبية، باردة الدّم"، "لماذا؟" "تنظر إلينا بعيون جامدة فنأكلها من دون ذبح."

هل كانت تلمِّح إلى برجي المائي؟ أبعدتُ هذه الفكرة، وسألتها: "وحيوانات البرّ ؟"، " تبكي فنرى دموعها، تهيج فنرى أعمالها، نعايشها، نكلمها، نسميها، نقدّمها قرباناً حتى نؤجل موتنا..."

لاحظت أن طريقة القصاصات تجعلها ـ على العكس من كلام الشّفاه ـ أقرب إلى الكلام مع الذات. جَمَعَتْها شروق ووضعتها في حقيبة يدها حتى لا ننسى كلامنا على مائدة المقهى!

لكنه لم يكن كلاماً معتاداً.معها اكتشفتُ إمكانية الإبحار بحاسة واحدة وترك بقية الحواس في الخلفية. اكتشفت أن سماع الصوت هو الوحيد الذي يمزق دَوَاخِلَنا ويشوش علينا احتمالات التسرب عبر الصمت. إنه الوحيد الذي ينادينا بعنف، فنطيع. هو الذي يأمر، ويزجر...

فيما بعد علمتني ألعابها المفضّلة: أن نتعرّى من بقية الحواس ونتخاطب بالأنف وحده. وهكذا نهيئ لذكرى متعذّرة الاستدعاء لاحقاً، ونتخاطب باللمس وحده، باللسان، باليدين، بالجسد كلّه، حتى ندقّ على جوانيّة معتمة سوف تمحى. لكنّها تظلّ ممتنعة. "العين في العين" تكتب لي. وما الصمت؟ أيكون لحظة بين صوتين؟ تقصّف غصن بين لحظتين؟ لكن تلك اللحظة كانت من نصيبها ولم تكن من نصيبي...

معها يخرج المرء من تحوّل مزعج فيقول لنفسه: أنتَ! ثم يبحث عن ثالثه! (1+1= ؟) تعود لتسأل...

وفي غرفتها ليلاً: تمثال عارٍ، قطعة منحوتة من صلصال الليل، بصدر صَلب، وردْفٍ نافر إلى الخلف بنتوء يتميّز به الزنوج.

كنت لا أزال أتأمل ـ على ضوء الشارع ـ انزلاق الوميض على ليل جسدها المبروم، الأملس، المكتنز، المشدود، بينما الأغنية تحرّك أصابعي ولساني "أنا مش سودَا بس الليل سوّدني بجناحو" فأقترب مفتوناً بهذا التقابل في اللّون بين جسدينا. تمتصني بشرتها السوداء فأومض مندسّاً فيها، متسلّلاً منها، غارزاً أصابعي في تكوّرات صلصال أسود " مرقوا الخيالة ع الخيل تركوني وراحوا "عندما انقضّت عليَّ في موضع واحد:(هو!) وراحتْ! حاولتُ التراجع والخروج من الصمت إلى كلام لا يجدي. أشرت في العتمة إليه أنْ "لنْ..." لم تكن تسمع أو ترى أو تهجئ إلاّه والعتمة. تحركتُ في كل اتجاه "أنّ الأمور لا تؤخذ هكذا..." أطبقتْ عليه. ضغطت. مددتُ يدي فنتَرَتْها. حاولت تمديد اللحظة التي أُخذتُ فيها أخْذاً من أجل إيقاظ الحواس كلّها؛ منعتني بأظافرها وكوعَيْها وقدميها من إتيان أية حركة. تراجعتُ من الدهشة إلى الارتباك. بدأت تأكلني وتمضغني، أو تكاد، وأنا لم أبلغ قابلية المأكول للأكل بعد. لم أعد موجوداً في حضورها، بل في حضورهما: هو، المنفصل عني الآن، وهي، الهاربة به. تأخذني شطراً وتؤجلني شطراً. تسوق الشطر الذي سمَّتْه لها، وتؤجِّجه بكل ما تنوي، توجّهه بآلية تلبّي غوايتها ولا ترويني، بل تؤلمني أحياناً. أعرف مثل هذه اللحظة: "آخُذُكَ وأشكّلك". تقفز إلى ذهني جُمَلٌ أخرى كتبتْها لي"تؤخذ أخذاً عندما لا تنقاد، تسلبُ سلباً، وتغتصب". أتذكّر مثل هذه التجربة. سوف تظلّ، عندما تستدعيها الذاكرة، عطشاً دائماً،لحظة فالتة من أيّ رواء (الذكرى: مجنّدة إسرائيلية تتعهد قضيب الفدائي الأسير بيديها. تجعله ينتعظ. وفي أوج الانتصاب تنادي الكلبة المدرّبة، كلبة بافلوف المجنَّدة، تفتح الكلبة فمها وتتابع ما بدأته سيّدتها...ولن تتركه إلا إذا حصلت على مثيرها الشَّرطي، على مائه الذي يأتي ولا يأتي مسكوناً بالخوف والقرف). أعترضُ، أحاول. تتحوّل إلى أنثى فهد في غابة ليلية، بأظافرها، بأطرافها ، بأسنانها، بوركيها، بتطاير شعرها، بشرر عتمتها...

لم أسعَ إلى هذا. لم أسعَ. سوف تظل الذكرى، كما ظلت صورتها المعكوسة (الصورة المعكوسة: أخرى، بيضاء، مستلقية بمقابل مادي، تنكش أنفها بخنصرها، هيّا، بسرعة، أكملْ!) لكن النتيجة واحدة: لذّة بغير وسائلها، وفي غير مكامنها، بالنسبة إلى شخص واحد على الأقل، وعلى حساب طرف واحد على الأقل. ثم...وبصَوْت الصّمّاء، المتفاوت في نشاز درجاته: "لم أطلب منك شيئاً تفتقر إليه. المال؟ لا مال لك حتى أطمع فيه. تبيع الكلاَم؟ أنا لا أستهلكه. أخذتُ منك ما أفتقر إليه وهو فيك؛ هنا والآن: هو، وليس أنت!"

أكانتْ تأخذ بثأرها ؟ أي ثأر؟

تلوَّتْ، صرخت، مزّقت الليل بالليل...أوف! وأعادَتْه إليّ ! ضحكتْ، صفّقتْ، قهقهتْ، وأشارت إليه: كان قضيباً من نار. تخلت عني ولاحَقَتْه بصوتها النشاز: "والآن؟ ماذا ستفعل؟ "

من ليل الصمت والغزل إلى ليل تسكنه قهقهات المسوخ. كنّا نلهث معاً؛ أنا من استرجاعه، وهو؛ متأرجحاً بين الالتحاق بها والعودة إليّ...في غياب كلبة المجندة! (الذكرى:أخرى مستلقية في قيظ صحراءٍ مّا، في خانٍ بعيد وغامض، يؤمه الرجال من كلّ الأصقاع ويدخلونه من كلّ الأبواب...)

أيّ ثأر؟ أيّ خيالة على الخيل تركوني وراحوا ؟ أهي عبودية القرون ؟ كانت كلماتها بذيئة، منتقمة، وكأنها توجهها إلى جوهر الرّجال مستقْطَراً على مذبحي...كما لو كانت تمزّق عِجْلاً مقدَّساً وتلتهمه نيئاً، ساخناً، متوفِّزاً بحرارة الدم...

كانت تشبه قارة بأكملها...قارة سوداء...تعصف بها عناصر مباغتة هوجاء...

(8)

مطر خريفيّ غليظ القطرات في الطريق إلى المطار. النّاس ينسحبون من مجال رؤيتي، مثل أشجار الطفولة المنسحبة وراءنا ونحن في السيارة. هاأنذا أعود إلى بلادي بعد أن تأججت رغبتي لتنطفئ مرّتين على مذبح الآخرين.

-مبسوط ؟ سألتني راوية.

-نعم ؟

-تمتّعت بالزيارة ؟

لا أعتقد أني حزين...

صوتها يلاحقني في الطائرة "مينْ دَلَّكْ بالهوى ع بَيْتنا " كأنني لم أقم بهذه الرحلة "مُرّ النَّوى بكاس الغرام سقيتنا "كأنها كانت في الحلم "وما رْبِحْنا بعشْرتَكْ غير الألَمْ" مازال الناس أمامي "حبَّيْتنا ويا ريت ما حبَّيْتنا" الرُّكاب، المضيفات، الميكروفون "بسْ...مين دَلّكْ بالهوى ع بَيْتنا" يتحرّكون ولا يصلون " لَيْش تقهر قلب برَفْرف مَعَكْ " شروق، راوية! "شو وَلَّعَكْ بغيرنا شو ولّعك" كأنني في الحلم "لَوَّعْتنا بُكرة الهوى بلَوّعكْ " أرى أشباحاً تتحرك أمامي تتموج " فرشْنَا طريقكْ وردْ يضْحكْ للدَّلالْ" لا أعتقد أنني حزين " قُلْنَا جَمَالَكْ ما انشغلْ متلو جمالْ" الأولى صدَّتْني وأجّجت شهوتي للكلام " واعْمَلتنا زهرة غرامكْ والخيال " والثانية أخذتْني أخذاً في الصّمت ورفضت مني الكلام " ورميْتنا مِنْ بَعدِ ما شمَّيْتنَا " أكنتُ بين ليلٍ ونهار أم بين حلم ويقظة؟ "الله! شو حمّلْتنا قهر وضنى...بسْ... مينْ...دلّكْ..."

أرى مَنْ حولي عبر غلالة نعاس. لكنهم، من الخارج، يروونني جيّداً. وهاهو ذا مجاوري في المقعد يثرثر: "كنتْ بَشْتَغلْ في تونس، ولي ذكريات حلوة فيها...إنت بتحبّ لبنان وأنا بحبّ تونس... ياريت تعرفت عليك من قَبل...كنت عَزمتك ع الجبل...بتعرف الجَبل وقعدات الشِّتي لمّا بيندف التّلج...والكستناء والكاس و... صوت فيروز... ياريتني عرفتك من قبل..."

هكذا هي الحياة.

لامَسْتُها ورقة ورقة. نزعْتُها عنّي ورقة ورقة (أحبّك، لا أحبّك) أتُرانا نبثّ صورتنا الزائفة للآخرين وَهْماً لنهيّئ صُوراً أخرى لنا، نعود إليها، ننفض الغبار عنها صورةً صورةً(أحبّك، لا أحبّك) أيتها الحياة، فلا نجد في النهاية سوى الخواء؛ عُرْي الزهرة وفراغ البصلة، الدمعة العاشقة، وانشقاق الليل على غبطة قاتمة، متدرجة نحو السواد،

متأرجحة ما بين حزنٍ قارض وشفافية موغلة في إسقاط الأقنعة وتهشيم الصور...ثم بقاء الكلام؛ كلام الغائبين يرن حتى في الماضي ؟

ما من رحلة عكسية مع الزمن.

حتى جغرافيتك سوف تجدها ثاوية تحت زمنٍ آخر، يتربص بك في مواربة وصمت...بحفيف وبريّ... يهيئ لضربته في الخفاء. " لا مال لك، وتبيع الكلام، وأناً لا أستهلكه..." ثم تعود لتنسج الصّوف...

نهاية أولى

نهايات

(1)

أول ما استيقظتْ راوية من حالة الغيبوبة الطويلة، بعد ذلك الانفجار المريع لسيارة مفخّخة في قلب الحمراء، قالت أن صوت فيروز لم يفارقها. تحدثتْ كذلك عن الخيانة من دون أن توضح من خان منْ.

لكنّ القادح الأول الذي دفعني إلى كتابة حكايتها لم يكن حادث الانفجار في حدّ ذاته وما أعقبه من غيبوبة طويلة، بل كان حلماً: فقد حكت لي بعد خروجها من تلك الحالة أنها حلمت، بأنها تحلم، برجل، يحلم بتمثال لها، يظلّ بلا ملامح وبلا حركة ثم يتحرّك.

هنا بدأت علاقتي بها في التراجع؛ ليس لأننا، نحن الكُتّاب، نعمد إلى إخفاء بعض أسرار الكتابة عن زوجاتنا عندما لا يكنَّ فيها، بل لأن معركة الغيبوبة انتهتْ ـ وكنت قد ساعدتُ راوية على الشّفاء ، أثناءها، بإسماعها حكايات وأغنيات تحبّها ـ ثم بدأت معركة الصّحْو: ادّعت راوية أنها اطّلَعتْ على خياناتي! أية خيانات؟ لست أدري! قالت إنها ذهبت في غيبوبتها إلى أمكنة غامضة رأتني فيها أخون! قالت أيضاً "صحيح أنني لم أتبين أسماءهنّ الحقيقية، غير أنني أستطيع، الآن، المطابقة بين صورهن التي رأيتها في تلك الأمكنة، وأسماء حقيقية توجد في الواقع، أي في الوسط الذي تتحرك فيه، أو كنتَ تتحرك فيه" وشدّدت الحصار.

أكَّدْتُ لها أن كل تلك الصُّور ـ إن وجدتْ ـ كانت وجوهاً زائلة، وأنت الوحيدة الباقية. ويبدو أنها وجدتْ ـ عَبْرَ تفاصيل مواتية، وأخرى جامعة بين الواقع والتوهم الذي تؤججه الغيرَة ـ ما أوصلها إلى قناعة الخيانة. فإذا هي خيانة متدّرجة من الخيانة الغامضة، القابعة في أعماق العتمة، إلى علاقتي بنساء أخريات، بينهنّ صديقات لها، وصولاً إلى الخيانة المتعلقة بالصمت حين لا ينبغي الصمت، مروراً بهواجس لم تتبيّنْها كثيراً، كما قالت، حول خيانة أدهى وأمرّ لها مقدّمات الخيانة العظمى.

في روايتها الأولى، على الرغم من ادّعاء البعض أنني كاتبها الحقيقي، أُخذ عليها جانب السيرة الذاتية في ما كتبتْ، وكأنّ كل الروايات ليست كذلك، بهذا المعنى أو ذاك ؟

تكلمت راوية وكأنها تعوّض ما فاتها من كلام أثناء غيبوبتها. قالت لي "حتى أنت متَّ بالنسبة إليّ! أما أنا فقد تحركتُ في غيبوبتي عبر مطارح الموت والخيانة. رأيتُ موتى يندبون، وشهداء يتحسرون. رأيت قادة الفكر والسياسة والأحلام، خلال القرن الماضي وبداية هذا القرن، يتقهقرون أمام حشود القتلى والجرحى والمعوقين، مكرّرين لهم أن المسؤولية ليست مسؤوليتهم...غريب! كنت أشعر بالآخرين وأراهم. وأحياناً يحدث العكس، فينتابني إحساس غامض بأن آخرين يحركونني كما قد تحرُّك قوة خفية وكلاءها في الدنيا، أو كما يحرك مؤلفُ شخوصَ حكاياته..."

حدث ذلك كله في الفسحة الزمنية ـ أتَكُونُ مكاناً أم هي تجري في الدماغ؟ ـ الفاصلة بين لحظة الانفجار الذي هزها، ولحظة خروجها من الغيبوبة. قالت: "رأيت أختي الكبرى تأتي لتشهد على خياناتي الصغيرة بإيماءات بليغة وصامتة".

قلت في نفسي، وأنا أستمع إليها، إن حكاياتها جديرة بالكتابة فعلاً. وقد تُشَكِّل مدخلاً إلى عوالم لا نتطرق إليها عادةً، ويأتي بها الكلام عندما يصطدم بثغرات الواقع، أو ما نخاله الواقع. وأكدتُ لها أن فيروز كانت الوحيدة التي واكبت مرضك حتى الشفاء، بصوتها الذي قلت لي ذات مرّة إنه يحرّك حتى عظام الموتى بشوق جديد للحياة." رأيت جمجمة تُطلّ من شباكي وتحدثني، قالَتْ، كلّمتني بعظة حفار القبور. رأيت كوّة صغيرة تخرج منها أشعة متراقصة. أتدري؟ كان كلّ شيء أثيريّا، متموّجاً، مغموراً بالنور، النّور في كل مكان، رأيت عبد الناصر، رأيت تشي غيفارا أيضاً. رأيت جدي. لكنهم كانوا يتموجون فيَّ. لم أرهم كما أراك الآن. بل أحسست بأنهم... يجب أن يكونوا هم. وكان كلّ شيء كذلك،لأنك تحس به، تماماً كما يكون الماء الذي يضاف إلى الماء ماءاً. كان هناك قديسون وقتلة، قوّادون وأنبياء ، خونة وشهداء. وكان هناك مترددون بين الموت والحياة، مثلي تماماً، فلا هم من الموتى ولا هم من الأحياء. قبل ذلك تخلّلتْ سكينةَ النور جيوبُ معتمة فيها حروب ودمارات وخيانات، أجسام بلا رؤوس تتابع المشي، أو تواصل ركوب الدراجات والسيارات، لدقائق قليلة، حتى ينتهي مفعول الرأس في الجسم، أو مفعول الدماغ، أو الدم، أو الروح، أو لست أدري أي مقوّم آخر للحياة...استسلمتُ أيضاً إلى عملية اغتصاب ولا أعلم إن كنت فعلت ذلك طواعية أم خوفاً؟ كنت أنتظر، جميعنا كنا ننتظر، ننتظر ماذا ؟ لست أدري. لم يكن هناك شيء يوقف شيئاً. ولم أكن أشعر بوجود زمن. كانت أشياء كثيرة تحدث متداخلة و...واضحة. ولا شيء يدل على حدوثها كحدث. حتى اللغة لم تكن سوى تواصل جُواني يأتي بالمشهد الذي تراه، والمشهد الذي رأيته، والمشهد الذي سمعتَ مَنْ يحكي عنه أو توقّعتَ حدوثه. لكنني لم أكن قادرة على قول ذلك بكلامي هذا... تذكّرتُ: كانت هناك موسيقى تنافس النّور وتغمر كل شيء..."

أعترف بأنني كنت بعيداً عنها برغم التزامي بزيارتها ومواساتها فيما بعد. وحتى في غيبوبتها سعيت إليها لأثبت لنفسي عليها سلطةً ما. كنت قد ضعت معها في متاهات معقدة أوقعتني فيها علاقاتها وصلاتها بالكثير من الأجانب، وتأثرها بمن تعاشرهم، وكذلك ـ وهذا الأمرّ ـ رغبتها الدائمة في فرض شخصيتها واستقلالها.

كل ذلك زاد في تسلُّطي الذي تبيَّن فيما بعد أنه مجرد تسلُّط وهمي. مع أنها كانت تنتظر مني كل شيء: أن أمسك بيدها وأمهِّد لها كل طريق...

بدأتُ ـ في أيام الحب الأولى وليالي الدهشة ـ بحكايات طفولتها، فامتلكتُها ـ أو توهمتُ ـ منذ يوم ولادتها. روتْ لي مغامراتها فامتصصتها. سيطرتُ على ماضيها. وكثيراً ما عمدتُ إلى ابتزازها به. عدّدتُ وجوهها وامتلكت أنفاسها...ومع ذلك تبين لي الآن، أنني لم أُمسك بخيوط اللعبة كما ينبغي؛ وأنا الذي ادّعيت بأنني المؤلف الأول!

(2)

طبعاً أنا لست زوج راوية؛ أنا كاتب آخر، حقيقي. أقول هذا رفعاً للالتباس.

لا أدري لماذا انسقْتُ إلى هذا الأسلوب في سرد حكاية يرويها مؤلف، عن مؤلف؛ نقلاً عن مؤلفة هي راوية؟ أكان ذلك من أجل حكاية في حكاية، تخفي بدورها حكاية،أم هي لعبة تبادل أدوار وأقنعة وخيانات ؟

لا أنكر وجود مآزق كثيرة في مواصلة هذه اللعبة؛ وليس أقلها مدّ هذا الكلام بحكاية تكون حكاية الحكاية أي حكايتي وحكاية الآخرين حولي.

أنسحب من حكايتي حتى لا تستبدّ بي فلا أرى ذاتي.

وهذا لا يعني انعدام وجود لذّة، من نوع آخر، في استرجاع خسائر خلْناها امتلاكاً ذات يوم. فاللذة تأتي، في حينها، من أنثى مستجيبة، وقد تأتي لاحقاً من أنثى لم تستجب.
نتحرك في عالم يُنْقصُنا عندما يُقنّنُنا. وتكون القوانين لنا، كما تكون علينا. لكنها تؤجل كل شيء. فلا بد من الجمع بين انتهاك الأقاصي والتزام الحذر.
الليل، أو إطفاء النهار بالاختلاء.
كلّ حركة نهار، أو هي تقتنص في الآخرين يقظة النهار. وبهذا المعنى يكون الآخرون، كلّ الآخرين، نهاراً.
عُزلتُنا هي قناعنا الأكبر لأننا، فيها،نكون قد تجاوزنا التنكّر،وسكنّا الغياب.
وكلنا نلوح سوداً، في المرايا، عندما نمارس الفعل القديم ملتفّين بالظلام...مع وميض يخترق العتمة.
في كلّ تأجيل للفعل إنضاج للعمل. هكذا يحوم الإلْف حول إلْفه ويتشمّم الحمار أرض أنثاه.
ما من هدف إلا ويكون إلى زوال. شبق، ثم ألفة، ثم برود. لذا تنصرف الشهوة إلى دقّ الأبواب المجهولة.
بسبب غموض الروح تدوم جاذبية الجسد.

ذلك ما تفعله الكتابة.
وإذْ تنكفئ، تأتي بالأقنعة، لكي تخترق الأسرار.
ولا أحد ينكرها عندما يتهمها بالغموض؛ لأنها تزاوج بين العتمة والضوء، بين المرآة وطلائها الخلفي، الانبساط والحفر، الترصّد...والضّرب في الخفاء.

الكتابة الذكية متعالية، رزينة، حتى في هواجسها الخفية.
والكتابة "الطرية" تستدرج زبائنها، وعيناها على بوليس الأخلاق. تنظر فلا تجد ذاتها في الآخرين، وتعود فلا تجد ذاتها في ذاتها. عندئذ يغزوها الكلام وتسكنها الصّورة، بديلاً من ضائع، وجوداً مصادراً، خواء وامتلاءً، تسلُّطاً وادعاءً ، صمتاً.
اللذّة واحدة والرحلات متعددة؛ رحلة الوجود إلى العدم، زيارة السيد للعبد، يقظة الكينونة من حالة التدجين: استفاقة الكلب على الذّئب، والخيل على الريح...
يقين تعصف به الدّهشة ،ومعلوم يأكله المجهول.

أنسحبُ من حكايتي حتى لا تستبدّ بي.
أعود إلى الصّمت.
كلُّ امتلاك للموضوع هو خسارة للذات.

(3)

مرايا تكرّر ما يقابلها، أو هي تكرر نفسها، إذا انعكست في غيرها. لكنّ المرآة الأجدّ (المرآة السحرية في الماضي) تدّعي أنها تعكس القريب والبعيد، الحضور والغياب، كما يزعم أيّ أثر فنّي.
ومع ذلك يمكن النظر في المرآة بطريقتين؛ من زاوية الرّائي، ومن زاوية المتلصّص عليه: القبَّرة المفتونة بمرآة الصيّاد.
أنهيت الكتابة مدَّعيًا أنني عدَّدت المرايا حتى تكون الرؤية من مختلف الزوايا، متاحةً للآخرين ولي؛ أنا المؤلف الخارج من مؤلّف في سلسلة يمكن أن تطول أو تقصر كما نشاء.

يا لها من متاهة، ودوار مرايا!

كل شيء يتغير. وما نرفضه اليوم قد نتقبله غداً. ينقصنا دائماً عنصر الزمن، حتى نظلَّ نقول لأبنائنا "اسمعوا..." فيرفضوا النصيحة النّاضجة بالخبرة.

تختلف الطرق ويظلّ جوهر الإنسان واحدا. كأننا نَفْنى ثم نعود. ننسى صورنا القديمة، في كهوف تتلوها كهوف، حتى نواكب عصراً سميناه عصرنا لأننا جئنا، بالتسلسل، إليه. وأضفنا آلةً أخرى، مدهشةً، تميزُ اختفاءنا فيه.

عندما راجعتُ مخطوطة هذا الكتاب، انتبهت إلى تفاصيل خفيّة متأتية من الفخ الذي ينصبه لنا الزمن، ومن عدم قابليته للاختراق في الاتجاه المعاكس. قلت: ربما كنا لا نستطيع الذهاب إليه لأن الغائبين يأتون منه، ويصيرون، بالتدريج، نحن.

إنها أخطاء أطفال: عيش اللحظة في الجغرافيا، وتذكّرها حين تصير تاريخاً.

كتبت هذه الملاحظات وأنا أسترجع صوتها الفيروزي: " تَعَ ت نتْخَبّا من درب الأعمار وإذا هنِّ كبْروا ونَحنَ بقينا صغارْ وسألونا وين كنتو وليش ما كْبرْتو إنتو مِ نقلهنْ نسيَنا واللّي نادى النّاسْ تَ يكْبَرُوا اَلناس راح ونسِي ينادينا..."

وحده سقفُ الشيخوخة يخبط رؤوسنا، فنعود عودتنا النهائية، منَ السقف إلى عثرات الطفولة على الأرض، منْ تَسلّق شجرة الحكمة إلى إفلاتِ اللعاب، من فمٍ بلا أسنان. نغار، نَبكي، نكذب كذبتنا الصغيرة، نخفي حلوياتنا الأَخيرة، وننادي الطفلَ، لنخدع الموتَ الذي فينا.

انتهى كلّ شيء الآن...لن أتكلم أكثر؛
لا شيء يأتي بعد التجربة إلا تعبيراً عن عجز.

(4)

خَرْبشْتُ، لكي أفنى في محبوبي؛ حتى وهو يغيب.
هوذا يأتي؛ وأنا، في النور، أذوب...

(5)

لغتي أنثى؛ وأنا أسهر لأبادلَها أكوابَ نبيذ.
تتعرى...فأجيء...

(6)

كنتُ صغيراً واللّعبةُ تأخذني.
ألهو الآن، فتأخذني الكلمات.

(7،8،9، الخ)
وإلى
(∞: اللانهاية)

تحرّكوا كلهم نحو الشرّ. كانت بداياتهم مرتبكة تتأرجح بين الانضباط الأخلاقي وجموح الرغبة. أنهوا التردد بوضع أقنعة، وخَلْق ظلال أخرى لهم. تركوا خلفهم صوراً وراءها صورٌ، وظلالاً تحت ظلال، ثم جاء كل واحد منهم ليزيح الذي قبله، وربما الذي بعده أيضاً. والحقيقة أنهم أرادوا إزاحتي أنا؛ المؤلف الأول، و...الأخير، ناسين، أو متناسين، أنهم بذلك الصنيع، إنما يكسرون وجودي أنا؛ الوجود الأبعد والأسبق، سواء في الامتلاء أو في الخواء.

كلهم سوف يذهبون للحصول على كتبهم كمؤلفين، فيصطدمون ببعض ملامحهم في الشخوص، كما يحدث للقرّاء. هكذا ينزرعون في الخديعة وكأنهم خلقوا أنفسهم، في عالم خلقوه بأنفسهم، كلّهم يغادرون ذواتهم، في النهاية، وينسحبون. وتبقى صورتي الأولى، ظلي البعيد، ضحكتي المتعالية في ليل وحشتي.

كانت قوتي في غيابي ولا شيء يسندني. والآن، أنظر عبر ظلالي، فأتوصّل إلى عرائي، إلى اللاّشيء يطوقني. ألم يكن من الأفضل لملمة غيابي ومواجهته، بدلاً من ابتداع صور جديدة لي، لا تفعل شيئاً في النهاية غير التأكيد على اختفائي، فتزداد أقنعتي لدى الناس ؟

أكان لا بدّ من مسايرة الوهم؟ بدأ الإنسان بلا وجه؛ ولم تكن به حاجة إلى التعرّف على وجهه، على هويته، لكنه في النهاية قَلَّدَ النبع وصنع المرآة. ثم بدأ رحلة الالتفات إلى الآثار. فهل يدلّ أثري، الآن، عليَّ ؟ كلاّ إنه يسخر منّي، من حضوري الذي كان؛ فإذا هو غيابي.

لم أُعْطَ سوى الوهم. فتَقَدّمتُ عبر الناس. أردتُ أن أكون طُعماً، فخًّا، قناعاً، يقرع الوهم بالوهم. إنني سيّدُ الآن، لكن على الوهم. لي حقوقي كلّها. ولا أشكو من شيء: لا من غياب الهوية، ولا من الاختلاف. زمني بلا ذاكرة. ليلٌ ليس يتلوه نهار.

كلّ شيء باطل؛ مازال المجهول يمتصّ المعلوم، لذلك أشعر بالشرخ وأسقط...

أسقط من الليل إلى كل ما أخسره وأسميه، فإذا هو القوانين التي تحفظ الحياة.

مازلت بلا اسم لأن اسمي ضاع منيّ في رحلة البحث عنيّ، حتى أبلغ الحياة كلّها: موتي.

يا لَكُلّ هذا الكلام! أنا الذي كنت أفضل الصّمت! لذا أسقط الآن من عليائي، مثل ملاكٍ سوف تجدونه، غداً صباحاً، عالقاً في أشواك ورودكم.

أسقط متوهماً أنني أصير، بعد التخلص من ظلالي وظلال الآخرين.

أقترب من اسمي.

القناع قبل الأخير

قبل أيام قليلة، كنت مارًّا في شارع الحريّة، أبحث عن دواء في إحدى صيدلياته، قيل لي أنه مفقود.

توقّفتُ، في الأثناء، أمام إحدى الواجهات البلورية أتفرج على أنواع متراقصة من الساعات. وفجأة حطّتْ يدٌ على كتفي :

-ها قد وجدْتُكَ!

-عزّوز المرداسي! معقول ؟

-وما المشكلة؟

-جئتَ لتستقرّ طبعاً!

-أنا ألماني الآن! هل تريد إلقاء نظرة على أوراقي؟ أنا لست مثلك!

-مثلي ؟
-تغترب عشرين عاماً، وتضيفُ إليها كلّ ما بعدها غربة ؟ أنا أفعل العكس.
-وما هو هذا العكس؟
-أتنقل في كل مكان حتى لا أغترب في أيّ مكان.
-وحتى الهُنا تسميّها غربة ؟
-الهُنا هي الهُناك، والعكس. أنا إنسان بلا حدود.
-كيف؟
-إنسان كوني!
-يا سلام !
-أتدري؟ كل الذين أبتعدُ عنهم، بمن فيهم أنت، أراهم يتضاءلون، كما لو كانوا يتحركون في طفولة ما.
-طفولتك ؟
-طفولة الكون؛ أعني ما يتبقى من الكون الذي لا أكون فيه.
-وماذا أسميك هنا؟
-جئتُ باسم الهر هانس سيباستيان متس !
-أهلاً يا هر!
استقبل دعابتي بعدم اكتراث. وأبدى بعض الانزعاج وهو يحرّك، بعنف، مُغَلَّفاً وبضع جرائد في يده:
-أنا منزعج منك هذه المرة. لديَّ ما أقوله لك !
-هل يتعلق بمهماتك الغامضة ؟
-بلا مزاح أرجوك؛ تعال نبحث عن مكان آخر.
بحثنا عن مقهى هادئة في شارع الحرية من دون طائل. فاقترحت عليه الذهاب إلى مقهى حديقة البلفدير.
فوافق متسائلاً:
-ألهذه الدرجة تحب حديقة الحيوانات ؟
-لا أطيق رائحة نفاياتها في أقفاصها.
-لماذا اخترت ذلك المكان إذاً ؟
-المقهى في الهواء الطلق وأمامه يسبح البط متأرجحاً بين الطيران وبركة الماء.
وهناك لم يحدثني عن مهمات سرية تتطلب خلوة بيننا.
-فاتَتْكَ بقية الحكاية؛ لقد تخلَّتْ عنّي راوية كما تخلّتْ عنك!
-أعرفها جيداً؛ كان لا بدّ أن يحدث ذلك.
-لكنك بالغتَ هذه المرة، فضحتنا يا أخي!
ثم تناول المغلف وأخرج منه كتاباً فوجئتُ باسمي عليه. لكنه بادرني بالقول:
-لا راوية، ولا زوجها، أنت هو الكاتب الحقيقي. لقد صدرتْ روايتك الجديدة في بيروت. وفيها تتحدث عن نفسك وعنّا، على الرغم من سعيك إلى التمويه بعدد من المؤلفين. والفضيحة الأكبر تمس بشروق؛ هي لم تقرأ الرواية بعد...لماذا وصفتها بتلك الصورة الوحشية المُفترسة، وبالعبودية الآخذة بثأرها، تاركاً لنفسك صورة الضحية ؟
مكثتُ مأخوذاً، حائراً، عاجزاً عن مقاطعة ثورته العارمة؛ وهو يتابع، ورذاذ لُعابه على الطاولة:
-أتساءل كيف ستستقبل شروق روايتك إذا قرأتْها، وكيف سيستقبلها الآخرون؟ أنا شخصياً قلت لك، في مرات سابقة، إنَّ ما لا يقتل من الأفكار ليس خيانة. وسمحتُ لك أن تكتب عنّي ما تريد، لكنك تجاوزتَ ذلك إلى ما يمسّ بطمأنينتي الشخصية؛ أنت تراهن على القتل المؤجَّل!
-اسمع يا عزوز! عمّ تتحدث؟ أنا لم أكتب رواية حول هذا الموضوع.

ازداد انفعاله؛ خبط على المائدة، فلفت انتباه بعض الزّبائن المتفرقين وقال بصوت عال:
-بلا مزاح، بلا فذلكة، لا تتهرب؛ الرّواية عليها اسمك. وفي أحداثها الكثير ممّا يشي بك، وبناً أيضاً!
-آه! فهمت! لقد فعلها مرة أخرى!
-من ؟
-زوجها!
-قلتُ لك لا تتهرّب! هما مطلَّقان منذ أعوام، فمن الذي سيوصل إليه تلك التفاصيل؟
-بطلاتُه طبعاً!
-بطلاته ؟
-ألم نسهر مع بعضهنّ؟ إنه يتقصّى أخبارهنّ بعد التخلي عنهنّ. وربما كانت بينهنّ منْ لا تزال على علاقة به. ومَنْ يكون المؤلف إنْ لم يكنْ متلصّصاً كبيراً، يرى الكون من ثقب صغير، يدّعي أنه العلياء؟
وضع المرداسي يديه على المائدة وأسند جبينه عليهما. لبث صامتاً وأنفاسه مُتلاحِقة ثم رفع رأسه فجأة وعيناه تومضان:
-لن أصدقك طبعاً. لكنْ اسمحْ لي بهذا السؤال الأخير، وأرجو أن تكون الإجابة صريحة: ألا تتمنّى قتلي؟
-لماذا هذا السؤال؟
-لأنني، كما فهمت، قناعُكَ الأخير!
تابعتُ المناورة:
-لا أنت قناعي، ولا أنت القناع الأخير.
-لن أصدقك طبعاً...وهذا لن يُعفيك من رقابة زوجتك أولاً؛ سوف تسألك: "من هي راوية؟" حالما تتصفح الكتاب، ثم تأتي رقابة الآخرين!
-قد لا تصدق شيئاً من كلامي يا عزوز، حتى تُفاجَأ، مثل راوية ومثلي، باسمكَ الكامل على غلاف روايته القادمة!
كنتُ أتكلم وأنا أتأمل مناورات البطّ، دوائر، في دوائر، في دوائر، تقترب من الأطفال وهم يلقون بفتاتٍ مما يأكلون، في البركة.التفتُّ عائداً من تأمل ذلك المشهد الجميل فلم أجد عزّوز المرداسي.
الملعون! كيف تمكّن من الانسحاب في منتهى الخفّة والصمت، تاركاً هذه النسخة من الكتاب على الطاولة ؟
عدتُ إلى البيت تحت قطرات مطرٍ خريفيّ دافئ. كنت متعباً ومنشرحاً في آن، مبلّلاً ودافئاً كما تحت أيّ مطرٍ يتأرجح بين الصيف والخريف.
وبالفعل،الْتَقَفَتْ زوجتي الكتاب منيّ، ولم تسألني عمَّنْ يكون المؤلف؛ فالمسألة واضحة بالنسبة إليها. وكان أوّل سؤال واجهَتني به: "منْ هي راوية ؟ "

راوية عمران
بيروت، خريف 1997